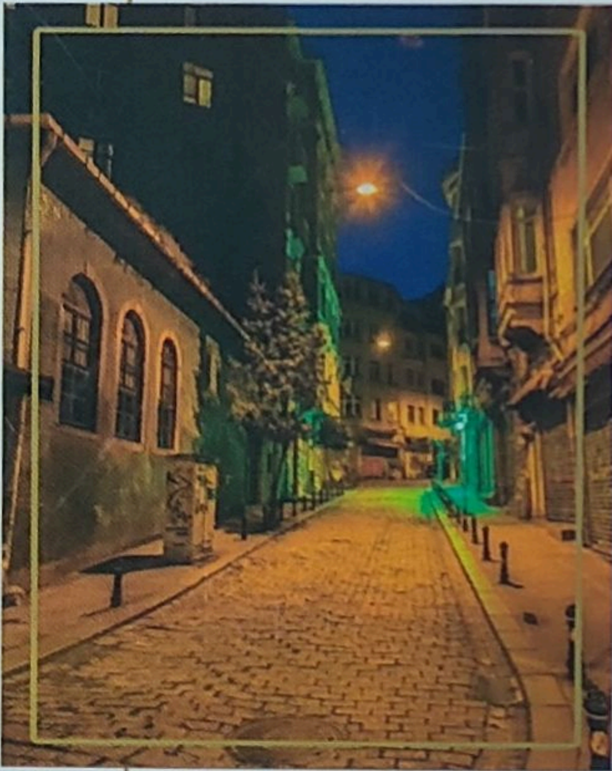


آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

السابقون في المدينة

تربية المجتمعات على فروض الكفايات



فايز بن سعيد الزهراني

الساعون في المدينة

تربية المجتمعات على فروض الكفايات

السَّاعُونَ فِي المَدِينَةِ

تَرْبِيَةُ المُجْتَمَاتِ عَلَى فُرُوضِ الكِفَايَاتِ

فَايِز بْن سَعِيد الزَّهْرَانِي

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز سعيد صالح

الساعون في المدينة. / فايز سعيد صالح الزهراني - ط١ - الرياض، ١٤٤٥هـ

ص ١٥٠؛ ١٤×٢١ سم

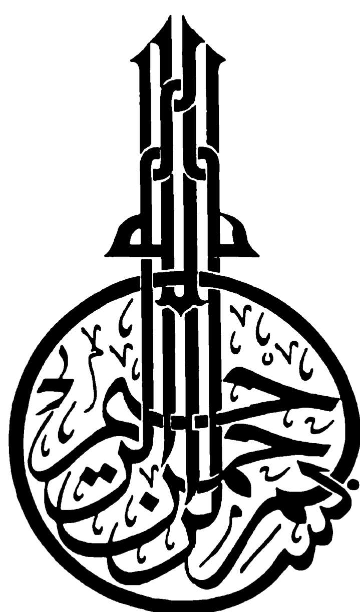
ردمك: ٤-٩-٨٥-٩٢٠٨٥-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع: ١٢٠٣٤/ ١٤٤٥

ردمك: ٤-٩-٨٥-٩٢٠٨٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

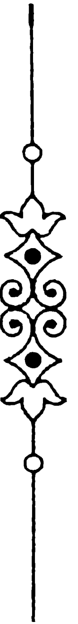

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

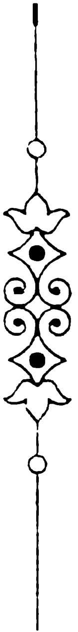
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

«أخذ المسلمون المخلصون هذه النبوءة القرآنية بجديةٍ دفعتهم لمحاولة تشكيل تاريخ العالم بأسره بما يتوافق معها. فما إنْ استقرَّت قواعد الإيمان حتىٰ انطلق المسلمون في بناء شكل جديد من المجتمع، حمل معه مؤسساتِه المتمايزةَ وفنونَه، وآدابَه، وعلومه ومعارفه، وأشكاله الاجتماعية والسياسية، جنبًا إلىٰ جنب مع عباداته وعقائده، وصبغها كلَّها بصبغة إسلامية لا تُخطئها العين مع مرور القرون، انتشر هذا المجتمع في أجواء وبيئات مختلفة عبر معظم أنحاء العالم القديم، وأصبح أقرب ما يكون من توحيد جميع البشر تحت قيمه ومُثُله».

مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام، ١/ ١٧٥



التمهيد



الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد:

نحن أمةٌ ختم الله سبحانه وتعالىٰ بها مسيرة الأمم، واختار الله لها خير الأنبياء وأحسن الكتب وأكمل الشرائع، وجعلها خير أمةٍ أُخرجت للناس، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وجعلها الله سبحانه وتعالىٰ أمة عدلًا شاهدة علىٰ الأمم في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨]، فكان نبينا ﷺ خير الأنبياء، وكان صحابته ﷺ خير الأصحاب لأنبيائهم، وكان علماء هذه الأمة خير العلماء في أممهم.

ومما يدل علىٰ علوِّ كعب علماء أمة الإسلام هذا التأصيل الفقهي، وذلك التقعيد النظري للشريعة؛ فقد شيدوا المدارس الفقهية والاتجاهات الفكرية، التي بها يستطيع طالب العلم أنْ يُعمِل

الدليل علىٰ الوقائع، التي في ضوئها يستطيع المسلم التعبد بشريعة الله في أي مكان، وفي أي زمان، وتحققت بذلك القاعدة العظيمة القاضية بأنَّ الشريعة صالحةٌ لكل زمان ومكان، وتأمَّل معي باب الضرورات الخمس - علىٰ سبيل المثال - كيف أبدعه علماء الأمة، بعد الاستقراء لنصوص الوحي والاستنباط منها، فكان هذا الباب منهجَ تفكير علمي وحياتي يُصلح حياة الناس وشؤونهم. وقُل مثل ذلك في غيره من الأبواب الأصولية والفكرية. ونتج عن ذلك صناعة مجتمعات قوية متعلمة، تُنتج وتُبدع، تربي الدين والأخلاق، وتحمي الأرض والعرض، وتفتح البلدان وتملؤها عدلًا ونورًا وجمالًا، ونتج عن ذلك إعجاب الأمم الأخرىٰ، أو قل: حسدها، وسعيها لاكتساب ما تيسر من المنهجية الإسلامية في الحياة. فلما انكمشت حقيقة الدين في نفوس كثير من المسلمين ضعف دورهم الإيجابي في الحياة، فخَفَت نورهم وانطفأ جمالهم وبدلوا الإيجابية قعودًا وكسلًا، وبدلوا الخروج للناس تصوُّفًا وانكفاء، وبدلوا العدل ظلمًا وجورًا، ولما تقهقرت المجتمعات الإسلامية، فكرًا وسلوكًا، انقضت عليها الضباع من كل مكان تنهش جسدها المريض: المريض في عقيدته، والمريض في إدراكه لحقيقة الدين، والمريض في فهمه لكينونته، من هو، وما دوره في الحياة وفي العالم.

لقد صُنعت حضارة المسلمين علىٰ قواعد الدين ومفاهيم الوحي. ومما أبدعه علماء الأمة الأجلَّاء في هذا السياق مبحث فروض الكفايات، وهو مبحث ينتمي إلىٰ باب الأحكام التكليفية، والأحكامُ التكليفية باب رئيسي في أصول الفقه.

وكون هذا المبحث ينتمي إلىٰ أصول الفقه، لا يعني أنه مجرد مسألة نظرية، وأنَّ محلها لا يعدو بطون الكتب، فإنَّ باب فروض الكفايات أيضًا منهجية علمية وطريقة تفكير يحتاجها الناس في معاشهم وإصلاحهم وفي كثير من شؤون حياتهم؛ إذ له تأثير كبير في إصلاح أحوال الناس ونهضة الأمم وتطوير المجتمعات واستقرار البيوت ونماء الأخلاق وحراسة الدين وصد المعتدين. وتتجلىٰ حقيقة هذا الباب في أربع قضايا مجتمعية مهمة:

الأولى: الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ونشر الدين، وتبليغه للناس، وتعليمهم أحكامه، وإصلاح انحرافاتهم، وأَطْرِهم علىٰ الحق.

الثانية: نماء المجتمع وخدمة الإنسان بما تصلح به أحواله حيًّا وميتًا، وبما يعينه ويجعله مستقرًّا معافىٰ، ودفعُ كل الأسباب المفضية للحرج والمشقة.

الثالثة: تقوية الأمة وصناعة هيبتها والدفاع عنها وتحصينها ضد أعدائها وجهادهم والتغلُّب عليهم ودفع صائلتهم.

الرابعة: الإحسان إلىٰ المحتاجين، ونجدة المتضررين والمنكوبين في الأزمات والكوارث وتخفيف آثار الجوائح والحروب ومنع الفوضىٰ حال اضطراب المجتمعات.

وكل هذه القضايا الكبرىٰ جاءت الشريعة بأحسن الهدي فيها، ودفعت الناس إلىٰ الإسهام في معالجتها من خلال أبواب فروض الكفايات.

ويتفشىٰ - في هذا السياق - في مجتمعات المسلمين اليوم إشكالان يقترن كل منهما بالآخر:

الإشكال الأول: يتمثل في الجهل بحقيقة فرض الكفاية ومنزلته في الشريعة ومكانته عند الله تعالىٰ، وأنه باب كبير في العبادة وسبيل واضح إلىٰ الجنة وبناء متين للسعادة.

الإشكال الثاني: يتمثل في ظاهرة القعود والتخاذل عن القيام بالواجب تجاه الأمة والمجتمعات، وتفشي الفردانية الصارفة عن الاهتمام بالشؤون المجتمعية، والحاثة علىٰ النظر الشخصي في تقييم المواقف والمصالح.

إنَّ هذه المعطيات لتَدْفع المسلم إلىٰ التفقه في باب فروض الكفاية، والسعي نحو فهم الإسلام فهمًا معمَّقًا شموليًّا نقيًّا، بعيدًا عن تأثير المنحىٰ الصوفي والتغول العلماني في حياة المسلمين.

واجتهدتُ في هذه الورقات أنْ أسطِّر شيئًا في بيان مفهوم فرض الكفاية، لعلها تجلِّي حقيقته وتبرز جماله، عبر عدد من المباحث:

المبحث الأول: وفيه دعوة القرآن الكريم إلىٰ الاعتناء بفروض الكفايات، وبيان معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]؛ إذ تمثل هذه الآية عمدة في باب فروض الكفاية، ويمكن وصفه بأنه مبحث فرض الكفاية عند المفسرين.

المبحث الثاني: وفيه تعريف فرض الكفاية، كما يعرض بعضَ أطروحات الأصوليين عنه وينقل بعض الأمثلة التي ذكروها، لمزيد من الإيضاح، ويمكن وصفه بأنه مبحث فرض الكفاية عند الأصوليين.

المبحث الثالث: وفيه بيان حاجة الأمة إلىٰ فروض الكفايات، فيربطها ببناء الأمة ونهضة المجتمعات وحمايتها عبر عدد من النقاط التي تبين أهمية هذا الموضوع.

المبحث الرابع: وفيه عرض موجز لبعض مجالات فروض الكفايات، علىٰ سبيل المثال واستثارة الفكر، لا علىٰ سبيل الحصر، بهدف تعزيز مفهوم فرض الكفاية الواسع.

المبحث الخامس: وفيه محاولة لتأطير هذا الباب بعدد من الاعتبارات والمحددات التي ينبغي الأخذ بها حال قيام الناس بفروض الكفايات، حتىٰ تتم علىٰ وجهها الصحيح، فإنَّ فروض

الكفايات يتنازعها اجتهاد فكري وحظ دنيوي واتصال بالناس وغير ذلك مما يشعر بأهمية المنطلقات الجيدة للقيام بفروض الكفايات.

وسميتها: الساعون في المدينة. لأنَّ الذين انتدبوا أنفسهم للقيام بفروض الكفايات لا يكفُّون عن الحركة النافعة ولا يتوقفون عن العمل الإيجابي الذي ينفعون به أمتهم ومجتمعاتهم ولا ينبغي لهم، محتسبين الأجر، متعبدين لله، ولا يهمهم أنْ يكون لهم بذلك جاه أو منصب أو مال، والسعي حركة وهمٌّ، والساعون قد يكونون معروفين أو مغموين، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠].

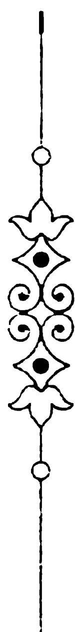
وأدعو القراء الكرام والباحثين وطلبة العلم إلىٰ إثراء هذا الموضوع وتأصيله بطريقة أحسن مما في هذه الورقات، من خلال الوسائل المتاحة المختلفة.

اللهم وفقنا لسداد القول والعمل وأعذنا من زيغ العقول والقلوب، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح، واجعلنا مباركين أينما كنا. رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً. آمين

وكتبه الفقير إلىٰ عفو ربه

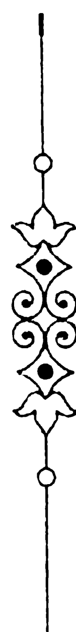
فايز بن سعيد الزهراني

العاشر من ربيع الأول ١٤٤٥هـ



المبحث الأول

دعوة القرآن الكريم إلى فروض الكفايات



سنتجول في هذا المبحث - بإذن الله - في فضاءات الآية الكريمة التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥]، ونقف علىٰ أقوال أهل العلم في معانيها ودلالاتها.

■ في معنى «يدعون إلى الخير»:

قال ابن عباس: إلىٰ الصلح والإحسان[١].

وقال مقاتل: الإسلام[٢].

وقال أبو جعفر الطبري: يعني إلىٰ الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده[٣].

---

(١) تنوير المقباس ص٥٣.

(٢) موسوعة التفسير المأثور ٥/ ٤٣٦.

(٣) جامع البيان ٥/ ٦٦١.

وقال السعدي: هو اسم جامع لكل ما يقرِّب إلىٰ الله ويُبعد من سخطه[1]. وهذا معنىٰ عام بديع.

وأما قول ابن عباس: الصلح والإحسان؛ فهو تفسير بالمثال وليس تفسيرًا عامًّا، ويفيد التفسير بالمثال في التعرُّف علىٰ أجزاء المعنىٰ العام، وقد يكون سببه مناسبة حاضرة، وهو قول مهم يشير إلىٰ شمول معنىٰ الخير، ولهذا قال البيضاوي: الدعاء إلىٰ الخير يعم الدعاء إلىٰ ما فيه صلاح ديني أو دنيوي[2]. ديني: مثل الإسلام وشرائعه، التي قالها الطبري ومقاتل وغيرهما، ودنيوي: مثل الذي ذكره ابن عباس الصلح والإحسان ونحو ذلك، لذلك يقول ابن عثيمين: كل ما جاء به الشرع فهو خير، ويشمل ما كان خيرًا في الدين وما كان خيرًا في الدنيا، أما ما كان خيرًا في الدين فأمره ظاهر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧]. وأما ما كان من أمر الدنيا فلأنَّ ما كان من مصالح الدنيا التي لا تعارض الدين فهو من الأمور الخيرية المطلوبة، فيكون الخير هنا يشمل خير الدين وخير الدنيا. فمثلًا يدعون إلىٰ فعل الطاعات: صَلِّ، زكِّ، صُم، حُج، بر والديك، صِلْ أرحامك، انصح في البيع والشراء، بيِّن، وما أشبه ذلك؛ كل هذا دعوة إلىٰ الخير. لا تزنِ، لا تسرق، لا تشرب الخمر، لا تقتل النفس بغير حق، لا تعق والديك،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٣٢.

(٢) أنوار التنزيل ٢/ ٣٢.

لا تقطع أرحامك، لا تغش الناس؛ هذا أيضًا دعوة إلىٰ الخير، لأ
طلب كفٍّ فهو في الحقيقة دعوة إلىٰ الخير؛ لأن ترك الشر خير (

إذن؛ الخير عام، يشمل كل مصلحة دينية أو دنيوية، وكل
يعود نفعه للإنسان وللمجتمع وللأمة، سواء في الدنيا أو الدين
خير.

والمطلوب أنْ يكون منكم أمة يدعون إلىٰ خير الدنيا وا
يحثُّون الناس علىٰ هذا الخير، ويساعدون الناس علىٰ هذا
ويقربون الناس من هذا الخير، ويدربون الناس علىٰ هذا الخير
ذلك من الدعوة إلىٰ الخير ولا يقتصر علىٰ الخطاب اللفظي ف

■ في معنى «يأمرون بالمعروف وينهون عن الم

قال الزجاج: يأمرون باتباع النبي ﷺ، وينهون عن الإقا
مشاقَّته[2].. واتباع النبي ﷺ هو حقيقة الإسلام وفروعه،
النبي ﷺ في حقيقتها الكفر وشعبه.

وقال أبو العالية: كل آية ذكرها الله في القرآن في الأمر بال
فهو الإسلام، والنهي عن المنكر فهو عبادة الأوثان والشي

(١) تفسير سورة آل عمران ٢/ ٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٦٠.
(٣) موسوعة التفسير المأثور ٥/ ٤٢٦.

لاحظ هذا التعميم: كل آيةٍ يذكرها الله في القرآن «الأمر بالمعروف» فالأمر بالمعروف أنهم دعوا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، دعاء من الشرك إلىٰ الإسلام والتوحيد، وكل آيةٍ ذكر الله تعالىٰ في القرآن النهي عن المنكر فهو النهي عن الشرك وطاعة الشيطان.

وعدد من أهل التفسير علَّقوا علىٰ كلام أبي العالية بتوضيحات مهمة، قال ابن عطية: ولا محالة أنَّ التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر التوحيد والكفر، يدخل في الآية ولا بد[١]. يعني من الطاعات ومن المعاصي كما قال مقاتل: يأمرون بطاعة ربهم، وينهون عن معصيته[٢]. إذن يشمل هذا وما دونه، ويشمل هذا وما دونه. وكذلك أبو حيان الأندلسي ذكر مثل هذا، فقال: ولا شك أنَّ التوحيد رأس المعروف، والكفر رأس المنكر، ولكن الظاهر العموم في كل معروف مأمور به في الشرع، وفي كل منهي نهي عنه في الشرع[٣].

والسعدي يفسر المعروف بأنه ما عُرف حسنه بالشرع والعقل، ويفسر المنكر بأنه ما عرف قبحه بالشرع والعقل[٤].

إذن المعروف عام في جميع الطاعات والقربات وأفعال الخير، بدءًا من الدعوة إلىٰ الإسلام الذي هو رأس الأمر، إلىٰ أقل شيء ندبت

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦.
(٢) موسوعة التفسير المأثور ١٠/ ٥١٣.
(٣) البحر المحيط ٣/ ٢٩٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٣٢.

إليه الشريعة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة فأعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]، فانظر هنا: أعلاها لا إله إلا الله - المعنىٰ الذي ذكره أبو العالية، وهو توحيد العبادة - وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق.

وإماطة الأذىٰ عن الطريق ليست من الشعائر التعبدية، وإنما هي عملٌ من أعمال الدنيا فيه مصلحة للناس، وقد ذكر المفسرون فيما سبق هذا النحو في معنىٰ الخير، فهو إذًا يدخل في معنىٰ المعروف كما يدخل في معنىٰ الخير، يعني لا يدخل فقط في «الخير»، بل يدخل أيضًا في «المعروف»؛ فإماطة الأذىٰ عن الطريق، وأمر الناس بإماطة الأذىٰ عن الطريق: أمرٌ بالمعروف، وتعليم الناس كيف يميطون الأذىٰ عن الطريق: أمرٌ بالمعروف، وكذلك تدريبهم عليه وحثهم عليه ومساعدتهم عليه وبذل المال لأجل ذلك: أمرٌ بالمعروف وإنْ لم يكن من الشعائر التعبدية، وإنْ كان من أمور الدنيا التي فيها مصلحة وخير للمجتمع والأمة.

والنبي ﷺ انتقىٰ الأمثلة بعناية، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، فذكر «لا إله إلا الله» وهو أمرٌ تعبديٌ محض، ثم ذكر «إماطة الأذىٰ عن الطريق» وهو أمر اجتماعي فيه مصالح للمجتمع، ويتعلق بمصالح

---

(١) أخرجه البخاري ح٩ ومسلم ح٥٨.

الآخرين، في صحتهم مثلًا، أو في طريقهم، أو في تعليمهم ونماء أموالهم... ثم ذكر «الحياء» فهو ليس أمرًا تعبديًّا محضًا، ولم يتحدث عن أمر مصلحي دنيوي ظاهر، وإنما تحدث عن خلُق وجداني نفسي، وكأن النبي ﷺ يخبرنا بأنَّ كل هذه الأصناف الثلاثة ينتظمها معنىٰ الإيمان، وكلها ينتظمها معنىٰ المعروف، فقوله «يأمرون بالمعروف» أي ما يتعلق بالجوانب التعبدية، وما يتعلق بالأمور الدنيوية التي يعود نفعها علىٰ الناس؛ مما لم تنه عنه الشريعة، وما يتعلق بالأخلاق الحسنة، فيجب أنْ يكون من هذه الأمة من يأمر الناس بهذه الأمور ومن يحثهم عليها.

والمنكر عكس ذلك، والنهي عن المنكر عكس ذلك أيضًا، بدءًا من الشرك؛ فالنهي عنه يدخل فيه دعوة الناس إلىٰ الإسلام، وقتالهم علىٰ الشرك، أي الجهاد في سبيل الله، فهذا نهيٌ عن المنكر، وأدناها المكروهات - ليس فقط المحرمات - التي جاءت الشريعة بكراهيتها، وإنْ لم تُرتب عليها إثمًا ولا عقابًا، وأشار إلىٰ هذا القاسمي في تفسيره[1].

إذن قوله: ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ يشمل كل خير: الدعوة إلىٰ الإسلام وإلىٰ التمسك بشرائعه وشعائره،

---

(١) محاسن التأويل ٢/ ٣٧٤.

ونفع الناس وتعليمهم وإصلاح معاشهم، وحراسة دينهم وأخلاقهم وتربية ناشئتهم، وسد احتياجاتهم، وتقوية صِلاتهم وقتال المشركين والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

■ في معنى «ولتكن منكم أمة»:

بقي عندنا الجزء الأول من الآية، هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، وهو ركن رئيسي في الآية.

فاللام للأمر، يعني: يجب أنْ تكون منكم أمة.

ولقوله تعالىٰ: ﴿مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ قولان عند أهل التفسير:

القول الأول: بعضكم. يعني جزءٌ منكم، وعلىٰ هذا يعتمد الأصوليون في مبحث فرض الكفاية، الذي إذا قام به من يكفي سقط الوجوب والحرج والإثم عن الباقين.

والقول الآخر: «منكم» لبيان الجنس وليست للتبعيض، كقوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي كل الأوثان، وليس في الأوثان ما هو رجس وما هو غير رجس، وهذا يشبه قولك: وليكن منك رجلٌ صالح، مثلًا، وأريد أنْ يكون منك كذا وكذا، وهذا لا يعني: أريد جزءًا منك، يدك مثلًا

أو إصبعك، إنما أريد منك بمعنىٰ: أريدك كلك، فيكون معنىٰ الآية: فلتكن الأمة كلها داعية آمرة ناهية.

وممن قال بالأول «التبعيض» مقاتل والضحاك والطبري ومكي بن أبي طالب والزمخشري والسعدي.

قال مقاتل: يعني عصبة. وقال: ليكن منكم القوم، يعني واحدٌ أو اثنان، أو ثلاث فما فوق ذلك[1].

وقال الطبري: أمة يعني: جماعة، ولتكم منكم جماعة[2]. يعني من هذه الأمة جماعة.

وقال مكي بن أبي طالب: ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعةٌ مستقيمة[3].

وقال الزمخشري: من للتبعيض؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات[4].

وقال السعدي: جماعة[5].

---

(١) التفسير المأثور ٥/ ٤٣٦.
(٢) جامع البيان ٥/ ٦٦١.
(٣) الهداية إلىٰ بلوغ النهاية ٢/ ١٠٨٨.
(٤) الكشاف ١/ ٣٩٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٣٢.

وهنا ملحظ: لماذا قال: أمة؟ وهم جماعة أو عصبة أو نفر قليل؟ والجواب: لأنهم يسدون مسدَّ الأمة، لفضلهم وجلالتهم وعلوِّ قدْرهم، يسميهم الله سبحانه وتعالىٰ «أمة» لأنهم يقومون مقام الأمة ويكفونها.

وممن قال «منكم» يعني كلكم: الزجاج والبغوي[1].

ومما استدل به البغوي - إضافة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠] - حديث النبي ﷺ: «من رأىٰ منكم منكرًا فلْيغيره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[2]. أي: ليس هناك معذور عن الدرجة الدنيا من النهي عن المنكر، والجميع قادر عليها، ثم الناس يتفاوتون في درجات الإنكار بحسبهم، فصار الجميع مخاطبين بتغيير المنكر. قال ابن عطية: ومعنىٰ الآية علىٰ هذا التأويل: أمر الأمة بأنْ يكونوا يدعون جميع العالم إلىٰ الخير؛ الكفار إلىٰ الإسلام والعصاة إلىٰ الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور علىٰ منزلته من العلم والقدرة[3]. فالوجوب علىٰ الجميع بأعيانهم، والتفاوت في التفاصيل، وهذا القول يعني أنَّ الأمة كلها مسؤولة عن الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٢، ومعالم التنزيل ٢/ ٨٤.

(٢) أخرجه مسلم ح٧٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦.

وبالنظر في القول الثاني والتأمل فيه، فإنه لا يختلف في جوهره عن القول الأول؛ فبتطبيق القول الأول سنجد طائفة من الناس يتصدون للتعليم، وطائفة آخرين يتصدون للجهاد، وطائفة ثالثة يتصدون لإدارة معاش الناس ومصالحهم، وهكذا طوائف رابعة وخامسة... حتىٰ تستوعب هذه الطوائف مجموع الأمة والمجتمعات؛ إذا استثنينا أهل الأعذار من كافة شرائح المجتمع، وهو مقتضىٰ القول الثاني، لذلك قال البيضاوي: خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل علىٰ أنه واجب علىٰ الكل حتىٰ لو تركوه رأسًا أثموا جميعًا ولكن يسقط بفعل بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية[1]. أي: واجب علىٰ الجميع، فإذا قام به البعض فيما فيه الكفاية سقط عن الباقين، أما إذا لم يقوموا به جميعًا فيأثمون جميعًا؛ لأنه فرض واجب.

وهذا النوع من الواجبات يختلف عن الواجبات العينية بكونه يرتفع بوقوع القدر الكافي منه في المجتمعات، بينما الواجب العيني «فرض العين» لا يرتفع إلا بوقوعه من المكلفين.

■ اقتباسات مهمة وتعليق

يقول ابن عطية: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف علىٰ مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة وحملهم علىٰ جادة

---

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٣٢.

العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم؛ ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلىٰ الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا؛ وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إنْ رأىٰ أحد نازلةً بديهة من المنكر كالسلب والزنىٰ ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة. ويحسُن لكل مؤمن أنْ يحتمل في تغيير المنكر وإنْ ناله بعض الأذىٰ، ويؤيد هذا المنزع أنَّ في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير: «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله علىٰ ما أصابهم»، فهذا وإنْ كان لم يثبت في المصحف؛ ففيه إشارة إلىٰ التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧][(١)]. فكما ترىٰ، ابن عطية يرىٰ المعنىٰ الأول، ثم يحمِّل الجميع مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقسم الناس إلىٰ مراتب، ويقسم الواجبات إلىٰ أصناف، فيجعل الأمة جميعًا في حالة حراك دائم ودائب وخلَّاق؛ تصلح به حال الأمة وتستقيم به شؤون المجتمعات، ثم يستحث أفراد المجتمعات للصبر وتحمل المشاق الناتجة عن هذه الواجبات الاجتماعية؛ إنْ صحت العبارة. مع ملاحظة أنَّ هذه التقسيمات نسبية، قد تختلف من عصر إلىٰ عصر، ومن مكان إلىٰ مكان، وتبقىٰ الفكرة المشار إليها ثابتة مقصودة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦.

ويقول ابن كثير: والمقصود من هذه الآية أنْ تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن؛ وإنْ كان ذلك واجبًا علىٰ كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأىٰ منكم منكرًا فلْيغيره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». وعن حذيفة بن اليمان، أنَّ النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر؛ أو ليوشكنَّ الله أنْ يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم»[1].

فابن كثير - وهو يرىٰ القول الأول - يقول: ينبغي أنْ تكون هناك فِرقة تتصدىٰ للدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم يوجب علىٰ كل واحد في المجتمع أنْ يقدم دورًا في هذا الأمر؛ بحسبه وقدرته ومكانه، فهو يتفق مع ابن عطية في الفكرة.

ويقول ابن عاشور[2]: «إنَّ الدعوة إلىٰ الخير تتفاوت؛ فمنها ما هو بيِّنٌ يقوم به كل مسلم، ومنها ما يحتاج إلىٰ علم فيقوم به أهله، وهذا هو المسمىٰ بفرض الكفاية، يعني إذا قام به بعض الناس كفىٰ عن قيام الباقين». فهو هنا يجعل جزءًا من الدعوة إلىٰ الخير واجبًا علىٰ كل

---

(١) أخرجه أحمد ح٢٣٣٠١. والاقتباس في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٩١.
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٣٩.

مسلم لسهولته والقدرة عليه، ويجعل جزءًا آخر واجبًا علىٰ البعض لا الكل، لأنه يتطلب علمًا بمهاراته وأدواته وقدرة علىٰ إتقانه وتفننًا في أدائه، والناس يتفاوتون في المعارف والعلوم والمهارات والإقبال علىٰ الأعمال؛ ومن ثَمَّ يقوم أهل كل فن بما يجب عليهم. لذلك يقول رحمه الله: «وتتعين الطائفة التي تقوم بها بتوفر شروط القيام بمثل ذلك الفعل فيها كالقوة علىٰ السلاح في الحرب، وكالسباحة في إنقاذ الغريق، والعلم بأمور الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». أيْ أنَّ الأفراد الذين يمتلكون القوة علىٰ فعل خيرٍ مَّا أو دعوة إليه يتوجب عليهم النظر فيما يمكن فعله تجاه أمتهم ومجتمعاتهم، فإنَّ فِعل ذلك واجب وجوبًا عينيًّا عليهم دون غيرهم من الناس، وبتقاعسهم عن أداء هذا الواجب يكونون آثمين مستحقين للعقاب، وفقًا لتعريف الواجب.

ثم يقول رحمه الله: «وكذلك تعيُّن العدد الذي يكفي للقيام بذلك الفعل مثل كون الجيش نصف عدد جيش العدو». فليس المقصود بفرض الكفاية قيام بعض الأفراد فحسب، وإنما يتطلب قيام العدد الكافي لتحقق المقصود من العمل، ومثَّل لذلك فيما لو كان لا يَغلب جيشَ العدو إلا جيشٌ فيه ما لا يقل عن نصف عدد جيش العدو؛ فإنَّه لا يرتفع الحرج ولا يسقط الفرض إلا إذا أوجدت الأمة العدد الكافي، فإذا وُجد العدد الكافي أصبح متعينًا عليهم، لذلك قال رحمه

الله: «ولما كان الأمر يستلزم متعلقًا فالمأمور في فرض الكفاية الفريق الذين فيهم الشروط ومجموع أهل البلد أو القبيلة لتنفيذ ذلك، فإذا قام به العدد الكافي ممن فيهم الشروط سقط التكليف عن الباقين، وإذا لم يقوموا به كان الإثم علىٰ البلد أو القبيلة لسكوت جميعهم؛ ولتقاعس الصالحين للقيام بذلك، مع سكوتهم أيضًا، ثم إذا قام به البعض فإنما يثاب البعض خاصة[1].

ويلاحظ من حيثيات فرض الكفاية المسؤولية الوجدانية والأخلاقية الملقاة علىٰ كواهل المسلمين، فإنَّ مؤدىٰ فرض الكفاية أنْ يكون المسلم فاعلًا للخير داعية إلىٰ الله نافعًا في مجتمعه آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر.

ويقول السعدي[2]: «هذا إرشاد من الله للمؤمنين أنْ يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلىٰ سبيله وإرشاد الخلق إلىٰ دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلىٰ الدخول في دين الإسلام ويدعون المنحرفين إلىٰ الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٣٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٣٢.

ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة». وهذا التعداد منه علىٰ سبيل ضرب الأمثلة لأنواع الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونجده يؤكد علىٰ حصول المقصود من العمل لإسقاط الحرج عن الأمة والمجتمعات في فرض الكفاية.

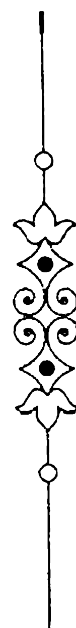
ويقول رحمه الله: «ومن المعلوم المتقرر أنَّ الأمر بالشيء أمرٌ به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلىٰ الخير ووسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم علىٰ تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه». وهذا واجب آخر، وهو الواجب الذي يعدُّ مقدمة لفرض الكفاية، وهو واجب الوسائل والاستعداد والتجهيز والتهيئة؛ فإنه مما ينبغي الاعتناء به واحتسابه جزءًا من الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالعمل علىٰ هذا المسار من الأعمال واجب كفائي أيضًا، وعلىٰ الأمة الاعتناء به

باعتباره مقدمة للواجب الأصلي. وقد يزهد بعض المسلمين في هذا المسار من الواجبات فيظنها خارج دائرة فرض الكفاية، لذلك أشار إليها وحث عليها العلامة السعدي رحمه الله تنبيهًا وتوكيدًا.

ثم يقول رحمه الله: «وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]».

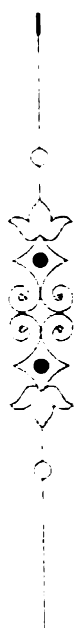
ولأهل العلم والتفسير حروف مهمة، ولهم تفصيلات واسعة ومفيدة لحقيقة هذا المفهوم، سنتجاوزها اختصارًا قدر الإمكان، لا سيما وقد أتينا علىٰ بيان معنىٰ الآية الكريمة.

وأختم هذا المبحث بخلاصة مهمة: وهي أنَّ الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معنىٰ عام يشمل الإسهام في كل خير وصلاح للأمة والمجتمعات، وأنه من الحقوق الواجب علىٰ الأمة الاعتناء بها وتنميتها.



المبحث الثاني

مفهوم فرض الكفاية



هذا المبحث علمي أصولي، وهو أيضًا تربوي تطبيقي، فلا بد من دراسته علميًا، وستتبين لنا أبعاده التربوية والتطبيقية.

■ تعريف فرض الكفاية:

يعرِّف الأصوليون فرض الكفاية بأنه: كل أمرٍ مهمٍّ يقصد الشارع إلىٰ تحصيله من غير تعيين فاعله[١].

ويعرِّفونه أيضًا بأنه: ما مقصود الشرع فعله، لتضمُّنِه مصلحةً، لا تَعَبُّد أعيان المكلفين به، وهو واجب علىٰ الجميع، ويسقط بفعل البعض[٢]. والطوفي يشرح هذه الجملة فيقول: فإنَّ صلاة الجنازة والجهاد مقصودُ الشرع فعلُهما لما تضمناه من مصلحة الشفاعة للميت، وحماية بلاد الإسلام من استباحة العدو لها، ولم يُرد بها تعبُّد أعيان المكلفين، بخلاف الجمعة والحج فإنَّ المقصود بهما تعبُّد أعيان المكلفين، ممن وجدت فيه شروط وجوبهما[٣].

(١) انظر: شرح الكوكب المنير ١/ ٣٧٥.
(٢) شرح مختصر الروضة ٢/ ٤٠٣.
(٣) شرح مختصر الروضة ٢/ ٤٠٤.

ومن خلال التعريفين السابقين، يتبين لنا أولًا أنَّ «فرض الكفاية» واجب بغضِّ النظر عمَّن يقوم به، فلا يتعين علىٰ كل أحد، لأنَّ المقصود منه حصول مصلحة متعدية، فإذا تحققت هذه المصلحة سقط الواجب عن الباقين، فيثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه إلا إذا لم تتحقق تلك المصلحة، سواء بترك الناس كلهم لهذا الواجب، أو بقيام من لا يكفي بهذا الواجب.

وفرض الكفاية مبحث أصولي، يبحثه المختصون في باب الأحكام الشرعية، تحت «الواجب». ذلك أنَّ الواجب ينقسم إلىٰ قسمين: أحدهما الواجب العيني «فرض عين» كصلاة الجمعة، وواجب كفائي «فرض كفاية» كصلاة الجنازة. يقول السعدي: وينقسم الواجب إلىٰ فرض عين، يُطلب فعله من كل مكلف بالغ عاقل؛ وهو جمهور أحكام الشريعة الواجبة. وإلىٰ فرض كفاية، وهو الذي يُطلب حصوله وتحصيله من المكلفين؛ لا من كل واحد بعينه، كتعلم العلوم والصناعات النافعة والأذان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك[١].

ويمكن القول إنَّ الفرض العيني هو الأصل، يعني: الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح والنهي عن

---

(١) رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة ص٥٣.

الإفساد هي واجبة علىٰ الجميع ابتداءً، حتىٰ تقام بما يكفي، فإذا أقيمت بما يكفي سقط الوجوب عن الباقين، فكأنَّ فرض الكفاية يولد من رحم فرض العين؛ إذا تجوَّزنا في الوصف.

وسأعرض بعض المسائل المتعلقة بفرض الكفاية، انتقيتها من كلام أهل العلم، بغرض تكميل صورته في ذهن القارئ الكريم.

■ مسألة: الفرق بين فرض العين وفرض الكفاية

١. فرض العين متوجهٌ إلىٰ الفاعل، وفرض الكفاية متوجهٌ إلىٰ الفعل في نفسه.

٢. المقصد من فرض العين هو امتثال الأمر، بمعنىٰ التعبد لله بطاعته، والمقصود من فرض الكفاية التعبد لله بتحقيق مصلحة ما في الأمة.

٣. فرض العين يغلب عليه التوقيف في العدد والكميه والكيفية والتوقيت، مثل الصلوات والصيام والحج والزكاة، أما فرض الكفاية فأغلبه اجتهادي ظني كإغاثة الملهوف وتربية الناشئة وإصلاح ذات البين والجهاد؛ فهو عمل اجتهادي مطلوب فيه تحقيق مقصد معيَّن.

٤. فرض العين يربي على العبودية لله، ويزود الروح بالقرب من الله، أما فرض الكفاية يربي على النظر في مصالح الأمة وسد احتياجات المجتمع.

٥. فرض العين لا يسقط عن أحد إلا بفعله، أو إذا عجز عنه، أما فرض الكفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين.

■ مسألة: فروض الكفاية عامة ولا تختص بالنخبة من الناس

يقول أبو المعالي الجويني[1]: «ومما يجب الإحاطة به أنَّ معظم فروض الكفاية مما لا تتخصص بإقامتها الأئمة، بل يجب على كافة أهل الإمكان أنْ لا يُغفلوه، ولا يَغفلوا عنه، كتجهيز الموتى ودفنهم والصلاة عليهم. وأما الجهاد فموكول إلى الإمام، ثم يتعين عليه إدامة النظر فيه على ما قدمنا ذكره، فيصير أمر الجهاد في حقه بمثابة فرائض الأعيان، والسبب فيه أنه تطوق أمور المسلمين، وصار مع اتحاد شخصه كأنه المسلمون بأجمعهم، فمن حيث انتاط جرُّ الجنود وعقدُ الألوية والبنود بالإمام، وهو نائب عن كافة أهل الإسلام، صار قيامه بها على أقصى الإمكان به كصلاته المفروضة التي يقيمها. وأما سائر

(١) غياث الأمم ص٢١٣.

فروض الكفايات، فإنها متوزعة علىٰ العباد في البلاد، ولا اختصاص لها بالإمام. نعم: إنْ ارتفع إلىٰ مجلس الإمام أنَّ قومًا في قطر من أقطار الإسلام يعطلون فرضًا من فروض الكفايات زجرهم وحملهم علىٰ القيام به».

وهذا تنبيه مهم يحمِّل مسؤولية فروض الكفاية علىٰ كل من يمكنه فِعل ذلك، ويشير إلىٰ أنَّ فرض الكفاية يتطلب مسؤولية أخلاقية من عموم الناس، وهذا الأمر لا يتم إلا بتربية المجتمع علىٰ مفهوم فرض الكفاية، بل يكون من واجبات الإمام أنْ يدفع الناس إلىٰ القيام بفروض الكفايات. فلا يصح في فرض الكفاية حيلة «الاتكال» علىٰ النخبة من المجتمعات كولاة الأمر أو الأئمة أو أهل العلم أو الحكومات أو المؤسسات الخدمية أو الصالحين، أو أيًّا كان؛ وإنْ كانوا يتحملون أكثر من غيرهم. وحيلة «الاتكال» تتخذ عددًا من الصور، منها إلقاء المسؤولية الكاملة عليهم في القيام بفرض الكفاية، ومنها تخويلهم بالتفرد في النظر في فرض الكفاية وتقديره والإذن به، ومنها توهم رفع الحرج بوجود المؤسسات الأهلية والحكومية، وأنَّ الناس غير مخاطَبين بفرض الكفاية ما داموا لا يعملون في تلك المؤسسات، وغير ذلك من حيل «الاتكال» المتفشية في مجتمعات المسلمين.

ومما ذكره من أمثلة فروض الكفاية والمسؤولية الجمعية فيها: «... وإنْ ضاع فقير بين ظهراني موسرين؛ حرجوا من عند آخرهم، وباؤوا بأعظم المآثم، وكان الله طليبهم وحسيبهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يبيتن ليلة شبعان وجاره طاوٍ»(١). وإذا كان تجهيز الموتىٰ من فروض الكفايات؛ فحفظ مهج الأحياء وتدارك حشاشة الفقراء أتم وأهم»(٢).

ويقول رحمه الله: «ليس يخفىٰ علىٰ ذوي البصائر والتحقيق أنَّ القيام بالذبِّ عن الإسلام وحفظ الحوزة مفروض، وذوو التمكن والاقتدار مخاطبون به، فإنْ استقل به كُفاةٌ سقط الفرض عن الباقين، وإنْ تقاعدوا وتجادلوا وتقاعسوا وتواكلوا عمَّ كافة المقتدرين الحرج؛ علىٰ تفاوت المناصب والدرج. ثم الذي أراه أنَّ القيام بما هو من فروض الكفايات أحرىٰ بإحراز الدرجات وأعلىٰ في فنون القربات من فرائض الأعيان، فإنَّ ما تعيَّن علىٰ المتعبد المكلف، لو تركه، ولم يقابل أمر الشارع فيه بالارتسام، اختص المأثم به، ولو أقامه فهو المثاب. ولو فُرض تعطيل فرض من فروض الكفايات لعمَّ المأثم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي؛ بلفظ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلىٰ جنبه» وصححه الألباني. انظر السلسلة الصحيحة رقم ١٤٩.

(٢) غياث الأمم ص٢٣٤.

علىٰ الكافة، علىٰ اختلاف الرتب والدرجات، فالقائم به كافٍ نفسه وكافة المخاطبين الحرج والعقاب، وآملٌ أفضل الثواب، ولا يهون قدر من يحل محل المسلمين أجمعين في القيام لمهم من مهمات الدين»[1].

وهنا تنبيه آخر، وهو خيرية القائم بفرض الكفاية، وأبو المعالي يفضله علىٰ القائم بفرض العين، وهي مسألة خلافية ليس المقصود تحريرها، ولكن المقصود إبراز علوِّ قدر هذا النوع من الواجبات.

■ مسألة: «الكفاية» تكون في الواجبات، وتكون في المندوبات أيضًا

يقول القرافي في مسألة في التفريق بين فرض العين وفرض الكفاية: «إنَّ الكفاية والأعيان كما يُتصوران في الواجبات يُتصوران في المندوبات؛ كالأذان والإقامة والتسليم والتشميت وما يفعل بالأموات من المندوبات؛ فهذه علىٰ الكفاية، والتي علىٰ الأعيان كالوتر وصيام الأيام الفاضلة وصلاة العيدين والطواف في غير النسك والصدقات»[2].

---

(١) غياث الأمم ص٢٥٨.

(٢) الفروق ١/ ١١٧.

وعلىٰ هذا النص ونحوه من أقوال أهل العلم يتبين لنا أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، عام في أعمال الخير والدعوة والتعليم والبر والإصلاح في المجتمعات، سواء كانت واجبة أو مندوبة، فتجب علىٰ الكفاية ويترتب عليها ما يترتب علىٰ الواجبات من الثواب والعقاب، وتستحب علىٰ الكفاية ويترتب عليها ما يترتب علىٰ الاستحباب من الثواب لا العقاب. وهذا ميزان دقيق يفيد الناظر والمتأمل كما يفيد المخطط والمقيِّم.

■ مجموع الأمة يقومون بمجموع الواجبات:

الواجبات أنواع مختلفة، والأمة أفراد مختلفون، وطاقاتهم وقدراتهم مختلفة، وذلك من حكمة الله وإبداعه في خلقه، ولا تجب كل الواجبات علىٰ واحد بعينه، فالواجبات تتوزع علىٰ الأفراد لأنَّ كل فرد يجب عليه أنْ يبذل ما يسعه. يقول ابن تيمية: «وكل واحد من الأمة يجب عليه أنْ يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره. فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أنْ يقوم به، ولهذا يجب علىٰ هذا أنْ يقوم بما لا يجب علىٰ هذا. وقد تقسَّطت الدعوة علىٰ الأمة، بحسب ذلك

تارة وبحسب غيره أخرىٰ؛ فقد يدعو هذا إلىٰ اعتقاد الواجب، وهذا إلىٰ عملٍ ظاهر واجب، وهذا إلىٰ عملٍ باطن واجب؛ فتنوُّع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرىٰ. وقد تبين بهذا أنَّ الدعوة إلىٰ الله تجب علىٰ كل مسلم؛ لكنها فرض علىٰ الكفاية، وإنما يجب علىٰ الرجل المعيَّن من ذلك ما يقدِر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن»[1].

■ مسألة: الأصل في فرض الكفاية أنه واجب على كل أحد

يقول بدر الدين الزركشي: «اختلفوا هل يتعلق فرض الكفاية بالكل أو البعض علىٰ قولين، مع الاتفاق علىٰ أنه يسقط بفعل البعض. والجمهور علىٰ أنه يجب علىٰ الجميع، ونص عليه الشافعي في مواضع من «الأم» منها قوله: حقٌّ علىٰ الناس غسل الميت والصلاة عليه ودفنه، لا يسع عامتهم تركه، وإذا قام منهم من فيه كفاية أجزأه عنهم إن شاء الله، وهو كالجهاد؛ عليهم حق أنْ لا يدعوه، وإذا انتدب منهم من يكفي الناحية التي يكون بها الجهاد أجزأ عنهم، والفضل لأهل الولاية بذلك علىٰ أهل التخلف عنهم. وقال في باب السلف

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٥/ ١٦٦.

فيمن حَضَرَ كتابَ حقٍّ بين رجلين: ولو ترك كل من حضر الكتاب خفتُ أنْ يأثموا، بل لا أراهم يخرجون من الإثم، وأيُّهم قام به أجزأ عنهم. وذكر مثله في الشهود إذا دعوا للأداء.

وجرىٰ عليه الأصحاب في طرقهم وإليه ذهب من الأصوليين أبو بكر الصيرفي والشيخ أبو إسحاق والقاضي والغزالي. قالوا: والجملة مخاطَبة، فإذا وقعت الكفاية سقط الحرج، ومتىٰ لم تقع الكفاية فالكل آثمون، واختاره ابن الحاجب ونقله الآمدي عن أصحابنا، وأنه لا فرق بينه وبين الواجب من جهة الوجوب إلا أنهما افترقا في السقوط بفعل البعض. ثم عبارة الأكثرين أنه وجب علىٰ الجميع، ونقل إمام الحرمين في التلخيص: عن القاضي أنه وجب علىٰ عين كل واحد. ولا بد من تأويله، ويخرج من ذلك - إذا قلنا إنه واجب علىٰ الجميع - قولان: أحدهما: أنه واجب علىٰ جميع المكلفين من حيث إنه جميع. والثاني: أنه واجب علىٰ كل واحد، فإنْ قام به بعضهم سقط التكليف عن الجميع، وإنْ لم يقم به أحد أثم الجميع، والظاهر ترجيح الثاني.

ويظهر مما ذكرناه أنَّ قولهم: ويسقط بفعل البعض فيه تجوُّز، فإنَّ علة السقوط بالحقيقة هي انتفاء علة الوجوب لا فعل البعض، لكن لما كان فعل البعض سببًا لانتفاء علة الوجوب؛ نسب السقوط إليه تجوزًا.

وحكىٰ أصحابنا وجهين في تجهيز الميت إذا تركه الجميع؛ هل يعمهم الإثم أو يختص بالذين ندبوا إليه من أهل الميت؟ قال النووي: وأصحهما: يأثم كل من لا عذر له»[1].

■ مسألة: الصناعات وتعلمها فرض كفاية

يقول أبو حامد الغزالي في بيان العلم الذي هو فرض كفاية: «اعلم أنَّ الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم. والعلوم بالإضافة إلىٰ الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلىٰ شرعية وغير شرعية.

وأعني بالشرعية: ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه؛ ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب؛ ولا التجربة مثل الطب؛ ولا السماع مثل اللغة.

فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلىٰ ما هو محمود وإلىٰ ما هو مذموم وإلىٰ ما هو مباح.

فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا، كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلىٰ ما هو فرض كفاية، وإلىٰ ما هو فضيلة وليس بفريضة.

---

(١) البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٣٢٢ بتصرف.

أما فرض الكفاية فهو علمٌ لا يُستغنىٰ عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمَّن يقوم بها حرِج أهلُ البلد، وإذا قام بها واحد كفىٰ وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا إنَّ الطب والحساب من فروض الكفايات؛ فإنَّ أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات، كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة والخياطة؛ فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاكُ إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك.

وأما ما يعد فضيلة لا فريضة؛ فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب، وغير ذلك مما يستغنىٰ عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه...»[1].

هذا المفهوم هو ما يجعل المجتمع المسلم في حالة ديناميكية من العمل والتفاعل والإنتاج والعطاء والإبداع، لأنَّ أفراده يملؤون حياتهم بعمل الواجب، مرة الواجب العيني وأخرىٰ الواجب الكفائي، ويتنقلون من واجب إلىٰ واجب، وتكون حيوات أفراده عبادات، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٦.

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣]. لأنَّ مصالح الدنيا التي يحتاجها المجتمع مطلوبة مقصودة، والعمل علىٰ إصلاح معاش الناس وحياتهم عبادة.

ولو سأل سائل فقال: أنا الآن علىٰ رأس وظيفتي، طبيب أو مهندس أو ميكانيكي أو كهربائي أو مدرب عسكري... فكيف تكون وظيفتي داخلة في هذا الباب «فروض الكفايات»؟ وكيف تكون مصدرًا للأجر والثواب؟

وجوابًا عن ذلك يمكن القول: إنَّ نية الإسلام العامة تجعلك كذلك، ونية الحصول علىٰ عمل طيب تأكل منه الحلال وتطعمه ذويك تجعلك كذلك، فيكون من المتعين عليك أنْ تتحقق من سلامة تخصصك وعملك من الشرور. لكن ابتغاء الأجر العظيم والكبير بهذه الوظيفة يكون أولًا باحتسابها خدمة للأمة والدين إضافة إلىٰ كونها طريق الرزق، ويكون ثانيًا بالقيام بالوظيفة وفق ما شرعه الله، فلا سبيل إلىٰ مخالفة أمر الله فيها وبها، ويكون ثالثًا بالعمل بأخلاق الشريعة المصاحبة للعمل، فلا يغش ولا يخدع، بل يرحم وينصح ويتقن ونحو ذلك، ويكون رابعًا بالتفكير في تطوير «الوظيفة» بما ينفع الأمة، لا بما يخدم المصلحة الشخصية، وهكذا من السلوكيات الدالة علىٰ استشعار العبودية لله في الوظائف والأعمال والمهن. وهكذا تكون المهن والوظائف في الاتجاه الصحيح، وتسير في طريق الارتقاء والصعود.

■ **مسألة: أمثلة تيمية على فروض الكفاية**

سأذكر بعض النصوص لابن تيمية، يصنف فيها بعض الأعمال ضمن فروض الكفايات، والمقصود من هذا العرض ضرب المثال علىٰ نظرة العلماء لفروض الكفاية، ومن هذه الأعمال:

- «إن تعلُّم العلم وتعليمه يدخل بعضه في الجهاد، ومن أنواع الجهاد من جهة أنه من فروض الكفايات»(١). ويريد من قوله «الجهاد» هو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، ودفع العدو الكافر، سواء فكريًّا أو عسكريًّا. ولو يفطن أهل التربية والتعليم إلىٰ فضيلة الثغر الذي يعملون فيه للزموه وأحسنوا تطويره.

- «وإعطاء السُؤَّال فرض كفاية إنْ صدقوا»(٢). بمعنىٰ أَنَّ السائل إذا طلب مالًا أو طعامًا أو غير ذلك وهو صادق في حاجته؛ فإعطاؤه فرض كفاية، أي يجب علىٰ الجميع أنْ يوفر له القدر الكافي من مطلوبه.

- «وتزويج الأيامىٰ فرض كفاية إجماعًا»(٣). والأيامىٰ جمع

---

(١) المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٠٣.

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ ٥/ ٣٧٤.

(٣) الفتاوىٰ الكبرىٰ ٥/ ٤٥٢.

أيِّم، وهو من لا زوج له من رجل أو امرأة[1].

- «وفي الجملة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فإذا غلب علىٰ ظنه أنَّ غيره لا يقوم به تعيَّن عليه، ووجب عليه ما يقدر عليه من ذلك؛ فإنْ تركه كان عاصيًا لله ولرسوله»[2].

- «إطعام الجائع وكسوة العاري فرض كفاية، ويصيران فرض عين علىٰ المعيَّن إذا لم يقم به غيره»[3]. من يعطيهم؟ هذا يكون حسب الجهد الذي يقوم به أهل هذه المحِلة في إدارة هذا الفرض؛ وكيف يُقدَّم هذا الفرض، وألا يكون عبثيًا. إذا استوعب المسلمون معنىٰ فرض الكفاية وأنه يجب البذل في هذا الاتجاه؛ سيديرون هذه الواجبات بشكل جيد، ربما يكون سداد فواتير، وربما يكون عطاء نقديًا، وربما يكون عطاء عينيًا، مثل: لباس أو أدوات كهربائية أو طعام مطبوخ أو طعام نيء، وهذا حسب إدارة هذه الواجبات، وعلىٰ المجتمع أنْ يتفقه في مبحث فرض الكفاية، ليعالجوا قضاياهم وفقًا لما يريده

---

(١) معالم التنزيل ٦/ ٣٨.

(٢) المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ ٣/ ٢٠٤.

(٣) الفتاوىٰ الكبرىٰ ٥/ ٥٤٨.

الله تعالىٰ، والمجتمع الذي يفقه هذا المفهوم، أو لديه من يكفي ممن يفقه هذا المفهوم؛ سيُدير فروض الكفايات الواجبة عليهم. وتعد الجمعيات والمؤسسات والمراكز الأهلية للتعليم وللدعوة وللإغاثة وللإطعام وللإحسان، وللبر ولتجهيز الموتىٰ ونحوها، هذه كلها تعد نماذج لإدارات فروض الكفايات، لكنها لا تكفي بطبيعة الحال، فالمجتمعات بحاجة إلىٰ مزيد من هذه الإدارات وبحاجة إلىٰ مزيد من النماذج المستجدة، حتىٰ لو كانت إدارات بسيطة كما يفعله البعض من قيامهم بأعمال فروض الكفايات علىٰ نطاقات ضيقة، دون الحاجة إلىٰ تأسيس مؤسسات. وبذلك تصبح فروض الكفاية ثقافة اجتماعية ومسؤولية عامة مشتركة.

- «واختلف أصحابنا وغيرهم في عيادة المريض وتشميت العاطس وابتداء السلام، والذي يدل عليه النص وجوب ذلك، فيقال: هو واجب علىٰ الكفاية»[1].
- «ومعلوم أنَّ تعلُّم العربية وتعليم العربية فرض علىٰ الكفاية»[2].

---

(١) المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٣٩.
(٢) مجموع الفتاوىٰ ٣٢/ ٢٥٢.

- «الصحيح أنَّ الأذان فرض علىٰ الكفاية؛ فليس لأهل مدينة ولا قرية أنْ يدَعوا الأذان والإقامة، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد وغيره. وقد أطلق طوائف من العلماء أنه سنة، ثم من هؤلاء من يقول إنه إذا اتفق أهل بلد علىٰ تركه قوتلوا. والنزاع مع هؤلاء قريب من النزاع اللفظي؛ فإنَّ كثيرًا من العلماء يطلق القول بالسنة علىٰ ما يذم تاركه شرعًا، ويعاقب تاركه شرعًا، فالنزاع بين هذا وبين من يقول إنه واجب نزاع لفظي»(١).

■ مسألة: نفير الجهاد ونفير التفقه ونفير النذارة

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]. والآية تنص علىٰ وجود طائفتين: طائفة تجاهد، وطائفة تتفقه في الدين وتنذر القوم.

في تفسير هذه الآية يحدثنا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قائلًا: «يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبي ﷺ وحده. فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة؛ يعني السرايا. فإذا رجعت السرايا

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٢/ ٦٤.

وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ؛ قالوا لهم: إنَّ الله قد أنزل علىٰ نبيكم بعدكم قرآنًا وقد تعلمناه. فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله علىٰ نبيهم بعدهم. فذلك قوله: ليتفقهوا في الدين؛ يقول: يتعلمون ما أنزل الله علىٰ نبيه، ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم، لعلهم يحذرون»[١].

فتأمل وصف قيام طائفة من المؤمنين بالتفقه في الدين ولزوم معلمهم ﷺ لهذا الغرض ثم تبليغهم ذلك العلم الذي تعلموه لمن فاتهم من المجاهدين؛ تأمل وصف هذا الفعل بالنفير، وهي اللفظة المعتادة في الجهاد في سبيل الله. ولهذا يجعل أهل العلم التعلُّم والتعليم والنذارة من الجهاد في سبيل الله، كما مر معك من نصوص ابن تيمية، رحمه الله. يقول رشيد رضا: «والآية تدل علىٰ وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه علىٰ الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم، وأنَّ المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والأمة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضًا عينيًّا، والدلائل علىٰ هذا كثيرة»[٢]. فهذه الآية تدل دلالة قوية

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٧٧.

(٢) تفسير المنار ١١/ ٦٣.

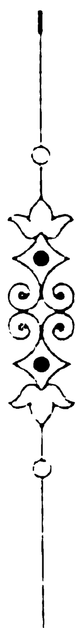
علىٰ ارتفاع شأن تعليم الناس الدين وتربيتهم عليه والاستعداد لذلك، وأنَّه من أهم فروض الكفايات ومن الجهاد في سبيل الله.

ومما تشير إليه الآية أهمية إدارة فروض الكفايات، وإخضاعها للتفكير المنطقي الذي ينظر إلىٰ الشمول والتكامل.

■ مسألة: فرض الكفاية من الحكم إلى الفكرة

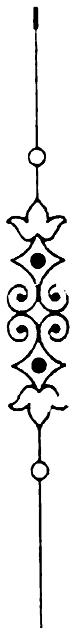
إذن؛ فروض الكفايات منهجية علمية في النظر إلىٰ واقع الأمة، وواقع المجتمع، وواقع الحي، وواقع البلدة، وتحديد البوصلة وفقًا لذلك، وبهذا يكون المجتمع المسلم - وبهذه المنهجية - مجتمعًا فاعلًا وقويًّا ومؤثرًا، مجتمعًا مبدعًا ومنتجًا، وهكذا في ضوء قول الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]. وهذه هي الفكرة: أنْ يقوم كل مسلم بما يتوجب عليه تجاه دينه وأمته، وأنَّ علىٰ كل مسلم بذل ما يمكنه من مال ووقت وجهد لقوة أمته ورفعة دينه وصلاح أحوال الناس، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ومصالح الأمة متنوعة، ويكون ذلك بميزان الشرع والنظر في الحاجات وترتيب الأولويات واكتشاف القدرات وتسخير الإمكانات.

الخيرية الأممية والتفوق الاجتماعي لا ينالان إلا بالاهتداء بكتاب الله تعالىٰ، ومن تلك الهدايات القرآنية الاعتناء بمفهوم فروض الكفاية وترجمتها إلىٰ واقع، وجعلها منهج حياة، وتأمل إعلاء نبينا ﷺ للأعمال الاجتماعية المتعدية، التي يبذل فيها الإنسان شيئًا من ماله أو جهده أو وقته، ليستبين لك أنَّ الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب واسع ومنهج شامل. لذلك مما ينبغي تعلُّمه وتعليمه هذا الباب من منظوره الشامل الفكري والتطبيقي. والأمة التي تعتني بهذا الباب أمة متفوقة وقوية وصالحة، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤].



المبحث الثالث

حاجة المجتمعات إلى فروض الكفاية



هذا المبحث يتحدث عن حاجة الأمة إلىٰ مضمون قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، ذلك أنَّ الله تعالىٰ وصف الذين يحققون معنىٰ هذه الآية بالفلاح؛ أيْ أنَّ الأمة لكي تكون مفلحة صالحة خيِّرة قوية شديدة متفوقة ناهضة متقدمة غالبة ظافرة؛ فعليها بمضمون هذه الآية، وهو الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ففي هذا المبحث سنناقش حاجة الأمة إلىٰ الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبيان ذلك كما سيأتي:

■ أولًا: فروض الكفاية فيها رفع للحرج عن الأمة

في العمل في فروض الكفاية سعيٌ لرفع الحرج عن الأمة، لأنَّ الأصل في فرض الكفاية أنه إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وأنه إذا تم العمل به علىٰ الوجه الكافي ارتفع الحرج عن الأمة. ويكفي الإنسان شرفًا أنْ يكون متصديًا لمعالي الأمور، وأنْ يكفي الأمة واجباتها، وأنْ يكفي المجتمع في بعض المسائل، ألا ترىٰ فضل

العلماء والمجاهدين والمتصدقين! انظر - علىٰ سبيل المثال - إلىٰ قول النبي ﷺ: «الساعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[١].. وقول النبي ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[٢].

قال أبو حامد الغزالي: «اعلم أنَّ كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليًا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم علىٰ المعروف. فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد؛ فكيف في القرىٰ والبوادي. وواجب أنْ يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية. وواجب علىٰ كل فقيه فرغ من فرضِ عينِه وتفرغ لفرض الكفاية أنْ يخرج إلىٰ من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم. فإنْ قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عمَّ الحرج الكافة أجمعين؛ أما العالم فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم.

وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أنْ يعرِّف غيره، وإلا فهو شريك في الإثم. ومعلوم أنَّ الإنسان لا يولد عالمًا بالشرع، وإنما يجب التبليغ علىٰ أهل العلم؛ فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من

(١) أخرجه البخاري ح٦٠٠٦، ومسلم ح٢٩٨٢.
(٢) أخرجه البخاري ح٥٠٢٧.

أهل العلم بها»[1].

لذلك اختلف العلماء في المفاضلة بين فروض العين وفروض الكفاية، حيث يرىٰ بعض أهل العلم أنَّ فروض الكفاية أعظم من فروض العين؛ لهذا المعنىٰ؛ لشرف من يقوم بها وفضله علىٰ الأمة، بخلاف فرض العين؛ فإنه من يؤديه لا يُسقط الإثم عن بقية الناس، هذا وجهٌ في المفاضلة. والوجه الآخر: ما يدلُّ عليه الاعتناء بفروض الكفاية من معنىٰ قلبي، كحب الله تعالىٰ وحب الإسلام والانتماء القلبي له والحرص علىٰ خدمته وعلىٰ حس المسؤولية تجاهه والواجب نحوه.

وسواء قلتَ بالرأي الأول أو الثاني، فليس هذا موضع الترجيح بينهما، كما لا يعني الترجيح بينهما التقليل من المفضول، لكن هذا الخلاف في المسألة يدلنا علىٰ أهمية فروض الكفاية في الشريعة.

وعلىٰ أية حال؛ فإنَّ المتصدِّين للدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما كانوا خيرة المجتمعات وصفوة الأمر إلا بقيامهم بفروض الكفاية التي ترفع الحرج عن سائر الأمة.

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٤٢.

■ ثانيًا: فروض الكفاية سبب في دفع العقوبات العامة

الإصلاح يدفع الهلاك العام، والمصلحون يدفع الله بهم شرًّا كثيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

إنَّ من سنن الله الاجتماعية أنَّ الأمم الضعيفة تكون نهبة للأمم الأخرىٰ، والنبي ﷺ أشار إلىٰ هذا المعنىٰ، كما في حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أنْ تداعىٰ عليكم كما تداعىٰ الأكَلَة إلىٰ قصعتها». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير؛ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١). وأصل الوهن: الضعف، قال ابن رسلان: يعني ضعف القلب والجبن عن قتال الكفار والفشل(٢).

وحديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أشار إلىٰ سبب التقاعس عن الإقدام وعن القيام بالواجبات، وهو حب الدنيا وكراهية الموت. قال الطيبي: وهما متلازمان، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلىٰ إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية فقد ابتلينا بذلك، فكأنما

---

(١) أخرجه أبو داود ح٤٢٩٧.

(٢) شرح سنن أبي داود ١٧/ ١٠٢.

نحن الميتون بما ذكر هنالك[1]. وإذا كان الطيبي المتوفىٰ سنة ٧٤٣هـ ينظر إلىٰ وجود هذه المشكلة في الأمة؛ فكيف إذا نظر إلىٰ واقعنا، والله المستعان، فإننا في خطر إذا لم نتدارك الأمر ونستشعر الواجب.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلًا لا ينزعه حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم»[2]. فهذا الذل المضروب علىٰ الأمة من العقوبات العامة بسبب تركها ما أوجب الله عليها من فروض الكفايات، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أول ما دخل النقص علىٰ بني إسرائيل كان الرجل يلقىٰ الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد؛ فلا يمنعه ذلك أنْ يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]. ثم قال: كلا والله! لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ علىٰ يدي الظالم، ولتأطرنَّه علىٰ الحق أطرًا، ولتقصرنه علىٰ الحق

---

(١) مرقاة المفاتيح ٨/ ٣٣٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود ح٣٤٦٢.

قصرًا»[1]. وكما في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر؛ أو ليوشكنَّ الله أنْ يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[2].

سؤال العقوبات العامة مهم للغاية: اعتداء الأمم على الأمة المسلمة، هدر الكرامة، الاستضعاف... من أين يأتي هذا؟ إنه لا يأتي من قوة العدو، وإنما يأتي من ضعفنا نحن، والقرآن علمنا ذلك، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]. فنحن السبب الرئيسي، ونحن الرقم واحد في المسألة، لا غيرنا.

وينتمي إلىٰ هذا المعنىٰ رواية أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ يتقاضاه دَينًا كان عليه، فاشتدَّ عليه، حتىٰ قال له: أُحرِّجُ عليك إلا قضيتني. فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك، تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي. فقال النبي ﷺ: «هلَّا مع صاحب الحق كنتم؟». ثم أرسلَ إلىٰ خولة بنت قيس فقال لها: «إنْ كان عندك تمرٌ فأقرضينا حتىٰ يأتينا تمرٌ فنقضيك». فقالت: نعم، بأبي أنت يا رسول الله. قال: فأقرضَته، فقضىٰ الأعرابي وأطعمه، فقال: أوْفيتَ،

---

(١) أخرجه أبو داود ح٤٣٣٦.

(٢) أخرجه الترمذي ح٢١٦٩.

أوفى الله لك. فقال ﷺ: «أولئك خيار الناس، إنه لا قُدستْ أُمة لا يأخذ الضعيفُ فيها حقه غير متعتع»[1].

حتىٰ الكوارث والزلازل والجوائح، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس، وأعوذ بالله أنْ تكون فيكم أو تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله عز وجل إلا سلط عليهم عدوهم واستفقدوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة رسوله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[2].. ففي هذا الحديث عدد النبي ﷺ بعض المنكرات التي إذا ظهرت وانتشرت في الناس فإنها تؤذن بحلول العقوبات العامة. فكان لا بد من إزالة هذه المنكرات والسعي في التخفيف منها مدافعة لما يعقبها من العقوبة العامة. وهذا السعي هو عينه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء كان ذلك باللسان أم بعمل المشاريع النافعة التي من شأنها التخفيف من المنكر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه ح٢٤٢٦.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ح٣٠٤٣ وصححه الألباني في الترغيب والترهب ح٢١٨٧.

■ ثالثًا: فروض الكفاية تقوي الأمة والمجتمعات

فروض الكفاية هي الباب الذي جعل الله تعالىٰ فيه تقوية للأمة، فإذا فرَّط الناس في فروض الكفاية ضعفت الأمة وانهارت المجتمعات، فالمجتمع الذي لا يعلِّم الجهال ولا يطبب المرضىٰ ولا يكرم الموتىٰ ولا يطعم الفقراء ولا يسد الحاجات ولا يعمر المساجد ولا يقيم الشعائر ولا يصلح الطرقات ولا يعد القوة ولا يمنع الرذائل ولا ينشر الفضائل... هذا مجتمع ضعيف مغلوب.

والناس تقيِّم المجتمعات، وتفرق بينها من حيث القوة والضعف من خلال هذه الأمور التي تعد في حقيقتها من باب فروض الكفاية، فتقول هذا مجتمع جيد وذاك مجتمع رديء، وهذه بلدة قوية وتلك بلدة ضعيفة.

وحين بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ البصرة واليًا؛ استهل أبو موسىٰ عهده بخطبته التي قال فيها: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم»[1]. فانظر إلىٰ صورة المفاهيم عندهم: تعليم الكتاب والسنة بإزاء إصلاح الطرق وتنقيتها؛ ألا ترىٰ التكامل في صورة المفهوم؟ وبهذا ينهض المجتمع ويتقوىٰ:

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٥٧.

فيه تعليم جيد، وفيه خدمات جيدة، ففروض الكفاية هي معطىٰ مهم جدًا في تقوية الأمة.

وحين فتح المسلمون البلدان فإنهم كانوا ينظرون إلىٰ تعليم الناس الدين وتربيتهم عليه أولوية، فيرسلون المعلمين إلىٰ هناك، ويرتبون لهم النفقات ويوقفون عليهم الأوقاف، ويفرغونهم لهذه المهمة، لما لهم من تأثير إيجابي في تقوية الأمة وصلاحها.

الأمة المتعلمة، والأمة المكتفية بالسلاح، والأمة المبدعة في الصناعات، والأمة التي تحمل ضعيفها وتؤوي فقيرها تهابها الأمم، كما نرىٰ اليوم، والأمة الضعيفة في عتادها، في عقول أفرادها، في علومهم تتسلط عليهم الأمم الأخرىٰ، فإنَّ المغالبة بين الأمم حتمية، والأمم لا تبقىٰ متفرجة علىٰ بعضها، بل تترصد لغيرها من الأمم، وتستثمر الوقت لتكون هي الأقوىٰ، وتحاول أنْ تنهش من كل أمة ضعيفة، وهكذا الأمم لا تزال في حالة مغالبة، وعلىٰ أفراد الأمة أنْ يسعوا في تقويتها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال:٦٠].

لم تُحتلَّ بلاد المسلمين إلا حين فرَّطنا في باب فروض الكفايات، حين تفشىٰ الجهل، حين توقف باب الاجتهاد، حين ضعف السلاح، حين أصبح لدينا جهل بالاستراتيجيات وما يحدث في العالم، حين قلَّ الإنفاق، حين تخلىٰ كثير منا عن مسؤوليته... فضاعت الثغور وتساقطت المدن والبلدات، وهذه نتيجة طبيعية، فالأمة التي لا تنفق المال ولا تُعمل الأيدي والعقول في تطوير سلاحها وإطعام فقرائها وزراعة أرضها وصناعة دوائها وتعليم أبنائها تستحق أنْ تكون في ذيل الأمم وأنْ تكون نهبة للأمم القوية.

ولذلك وصف الله تعالىٰ ترك الإنفاق في سبيل الله، بالإلقاء باليد إلىٰ التهلكة، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]. قال ابن عباس: ليس التهلكة أنْ يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله[١]. وقال الزجاج: وكل ما أمر الله به من الخير فهو من «سبيل الله»، أي من الطريق إلىٰ الله عز وجل، لأنَّ «السبيل» في اللغة: الطريق، وإنما استعمل في الجهاد أكثر لأنه السبيل الذي يقاتل فيه علىٰ عقد الدين[٢]. وقال السعدي: وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد وتسليط للأعداء وشدة تكالبهم، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك[٣].

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣/ ٤٦٢.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٦٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٤٤.

إذن؛ كيف يكون الإلقاء باليد إلىٰ التهلكة؟ يكون بالإمساك عن الإنفاق في سبيل الله؛ لأنَّ هذا الإمساك يضعف الأمة، ومثل إنفاق المال: إنفاق الوقت والجهد والفكر والعلم، وخلاصة الأمر أنَّ إهمال فروض الكفايات مفضٍ إلىٰ الهلاك والخسارة والضعف.

وفي هذا السياق تُطرح مسألة: هل العلم بواقع الأمور مطلب شرعي؟ هل يدخل في باب فروض الكفايات: أنْ نعلم ما يحدث في الواقع، وما يستجد في نظريات الإعلام والاتصال، في عالم الغذاء والدواء، في عالم السياسة وموازين القوىٰ، في شؤون العلم والتعليم... مثلًا، هل هو مطلب شرعي؟ ويجيب عن هذا السؤال شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: ينبغي للوالي والعالم أنْ يكون خبيرًا بالشر وأسبابه وعلاماته، مثل الخبرة بالكفر والفسوق وأحوال العدو في دينهم ودنياهم؛ ليحترس من شر ذلك[1].

وإذا تأملتَ في تاريخ القرنين الهجريين التاسع والعاشر، وذلك حين نشطت الصحوة الصليبية في أوروبا؛ فإنك ستجد الأمة الإسلامية وقد حققت عددًا من المنجزات، ففي هذه المدة فتحت القسطنطينية؛ علىٰ سبيل المثال، وهُزم الصفويون في جالديران، وعلىٰ الصعيد العلمي خرج كتاب فتح الباري لابن حجر رحمه الله، وخرجت مؤلفات السخاوي والسيوطي، وكثير من المتون والشروحات

---

(١) السياسة الشرعية ص١٩٣.

والتصانيف. ولكن في الوقت نفسه اعتدىٰ الصليبيون علىٰ الشواطئ الإسلامية الإفريقية، وتحالفت أوروبا مع نصارىٰ إفريقيا ضد المسلمين، وشرعت الصحوة الصليبية في «حروب الاسترداد» التي كانت تهدف إلىٰ استرداد الأندلس، وسارت نحوه في خطوات بطيئة وجادة حتىٰ تحقق لها ما أرادت؛ فما الذي حدث؟ هل كانت الأمة غافلة مغيبة، لا تدري ما الذي يحدث، ولا تعبأ بما يجري في الواقع؟ أم كان لديها اكتفاء وجداني بحفظ العلوم وتقرير المسائل وتصنيف الكتب وسبك المتون؟ أم أنها اتكأت في فروض الكفايات كالجهاد والإعداد ودراسة حال العدو واستشراف المستقبل والنظر في موازين القوىٰ علىٰ النُّخب؟ أم غير ذلك؟

سورة آل عمران تعلمنا كيف نقيِّم حالنا عند الإخفاق، ففي حين أوجبت علينا أنْ يكون منا من يقوم بفروض الكفايات، وفي حين أثنت علىٰ هذه الأمة كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠-١١١]. ثم وقعت بعد ذلك هزيمة المسلمين في أحد؛ حين ذلك أشار الله سبحانه إلىٰ أنَّ السبب يكمن في مدىٰ التزام الأمة بمتطلبات الخيرية، فقال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ

أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]. فردَّ الله سبحانه وتعالىٰ الأمر إلىٰ أنفسهم، ولم يردَّه إلىٰ قوة العدو، ولا إلىٰ تخطيطه، ولا إلىٰ مكائده، إنما ردَّه إلىٰ أنفسهم: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾، بل إنَّ الله تعالىٰ هوَّن من شأن العدو إذا اكتمل إعدادنا فقال سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:١١١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران:١٢٠]. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥]. فهذا درس للأمة كلها، لكي تفهم من أين تؤتىٰ وتدرك الأسباب الحقيقية لهزيمتها وتراجعها.

والوعي واجب الأمة، يقول السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٥١]: علمه مما يشاء من العلوم الشرعية والعلوم السياسية(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠١١-فروقات.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استحدث الدواوين، لأنه يرىٰ أنه من الواجب عليه تقوية الأمة وتحسين أوضاعها، فدوَّن الدواوين: ديوان العطاء المتضمن للحقوق المالية، وديوان الجيش الذي فيه الجهاد والفتح، وديوان الاستيفاء المتعلق بالاقتصاد، واستحدث الوظائف: وظيفة العسس وهم المراقبون لأوضاع المدينة ليلًا، ووظيفة تعليم القرآن؛ حيث جعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقرئين معلمين لكتاب الله تعالىٰ، ولهم مرتبات مالية، وأسَّس المعسكرات البحرية.

الاعتناء بتقوية اقتصاد الأمة، والتربية والتعليم، ودعوة الناس إلىٰ الله، وحثهم علىٰ فعل الخير، وتثبيت العقيدة الصحيحة في قلوبهم، وتحسين الأحوال الاجتماعية، واستصلاح الأراضي، والتصنيع، واستثمار الصناعات البحرية والنفطية، هذه كلها تُعطي القوة للأمة، والعمل في هذا فرض كفاية لما فيه من قوة لهذه الأمة، أما إذا أهملت هذه الأبواب فستقع الأمة فريسة للأعداء في أقرب فرصة. فماذا - مثلًا - لو فرضت الدول المنتجة للتقنية قيودًا واشتراطات علينا نحن المستهلكين تعتدي فيها علىٰ قيمنا وعقيدتنا؛ في ظل اعتماد «التعليم عن بُعد»، ألسنا نخضع لذلك؟ وقل مثل ذلك في عالم الصناعات. وهكذا تكون قوة التصنيع والإبداع مما يؤثر علىٰ أمتنا ضعفًا وقوة.

■ رابعًا: فروض الكفاية باب من أبواب الجهاد

إذا تقرر تأثير فروض الكفايات في تقوية الأمة؛ فإنها إذًا مما يعدُّ في أبواب الجهاد في سبيل الله والإعداد له، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالقوة ترهب أعداء الأمة، وهي هنا نكرة تفيد العموم، لذلك قال السعدي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين علىٰ قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تُعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم بها شر أعدائهم، وتعلُّم الرمي، والشجاعة والتدبير، والاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتىٰ إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك، لأنَّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب(١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٦٢٦ باختصار.

وانظر صنيع ابن تيمية حين قال: إنَّ تعلُّم العلم وتعليمه يدخل بعضه في الجهاد، ومن أنواع الجهاد، من جهة أنه من فروض الكفايات[1]. فجهاد العدو مفهوم واسع يستوعبه باب فروض الكفايات.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَـٰادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]. فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلىٰ سبيله بكل طريق موصل إلىٰ ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك[2]. قال الواحدي: أكثر المفسرين حملوا الجهاد ها هنا علىٰ جميع أعمال الطاعة، وقالوا: حق الجهاد أنْ يكون بنيَّة صادقة خالصة لله تعالىٰ[3]. فلم يقصروه علىٰ قتال المشركين في الميدان فقط، وهذا ما أشار إليه الحسن البصري في قوله: إنَّ الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضرَب بسيف[4].

وهكذا كان السلف الصالح يفهمون معنىٰ الجهاد والمجاهدة، ومثال ذلك أيضًا قول أبي الدرداء: من رأىٰ الغدو والرواح إلىٰ العلم

---

(١) المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٠٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١١١٩.

(٣) التفسير الوسيط ٣/ ٢٨١.

(٤) موسوعة التفسير المأثور ١٥/ ٢٣٠.

ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه[1]. وكأنَّ أبا الدرداء يقول: إنك حينما تقدم فرضًا من فروض الكفاية؛ مثل طلب العلم والتعليم والتربية ونحوه، فاحتسبه ثغرًا، واحتسب عملك في الجهاد، وأنك لَبِنة مهمة في المجتمع، وأنك عنصر فعَّال في الأمة؛ ولو كانت نتائجك صغيرة محدودة. ويبارك الله في المستطاع ولو قلَّ، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦].

ولو أَجَلْت بصرك في سِيَر أصحاب النبي ﷺ لرأيت تحقق هذه الآية فيهم: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾. فأصبحوا فاعلين جدًّا، وقضوا حياتهم يتنقلون من فرض إلىٰ فرض، وملؤوا حياتهم بأصناف العبادات العينية والكفائية، الواجبة والمستحبة، ومثالًا علىٰ ذلك: بلال بن رباح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ فقد كان مؤذنًا للنبي ﷺ، فلما مات النبي ﷺ كيف كانت طريقته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في التفكير؟ انتقل من فرض كفايةٍ إلىٰ فرض كفايةٍ آخر، فطلب من الخليفة أنْ يخرج إلىٰ الثغور للجهاد في سبيل الله، فتوجه إلىٰ الشام وتوفي بحلب مرابطًا في سبيل الله، وهكذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ يتنقلون من فرض كفاية إلىٰ فرض كفاية آخر، حتىٰ يتوفاهم الله سبحانه وتعالىٰ، فربما تجد الرجل منهم مجاهدًا ثم معلمًا ثم أميرًا، وربما صار معلمًا أو صار وزيرًا، وهكذا.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٥٢.

■ **خامسًا: فروض الكفاية سبيل إلى سدِّ الحاجات الاجتماعية**

الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تُكسب الأمة نماءً في الحالة الاجتماعية، من ذلك الاكتفاء الغذائي والمالي في المجتمع وعند الأفراد من الناس، وقد قال النبي ﷺ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلىٰ جنبه»(١). قال الألباني: في الحديث دليل واضح علىٰ أنه يحرم علىٰ الجار الغني أنْ يدع جيرانه جائعين، فيجب عليه أنْ يقدم إليهم ما يدفعون به الجوع، وكذلك ما يكتسون به إنْ كانوا عراة، ونحو ذلك من الضروريات. ففي الحديث إشارة إلىٰ أنَّ في المال حقًّا سوىٰ الزكاة، فلا يظننَّ الأغنياء أنهم قد برئت ذمتهم بإخراجهم زكاة أموالهم سنويًّا، بل عليهم حقوق أخرىٰ لظروف وحالات طارئة، من الواجب عليهم القيام بها، وإلا دخلوا في وعيد قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥](٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) السلسلة الصحيحة ١/ ٢٨١.

وفي حق الضيف قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيكرم ضيفه جائزته؛ يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أنْ يثوي عنده حتىٰ يحرجه»[1]. فهذا الإكرام حق له وواجب علىٰ الناس.

والإسلام يدعو إلىٰ سدِّ حاجة من يحتاج ورعايته كاليتيم، قال ﷺ: «كافل اليتيم، له أو لغيره؛ أنا وهو كهاتين في الجنة»[2]. وكفالة اليتيم فرض كفاية، وكما أنَّ أجرها عظيم؛ فإنَّ تركها من جميع الناس يوقعهم في الإثم.

وفي حديث النبي ﷺ: «الساعي علىٰ الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[3]. ما يدل علىٰ فضل السعي علىٰ الأرامل والمساكين ورعايتهم وسد حاجاتهم. هذا هو المجتمع النامي والقوي، وهذا هو النماء الاجتماعي. أما المجتمع الذي لا يحض علىٰ طعام المسكين، مجتمع ممزق بائس لا يحبه الله، يقول سبحانه في ذم الكافر: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٣-٣٧]. وقال سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري ح٦١٣٥.

(٢) أخرجه مسلم ح٢٩٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ح٦٠٠٦.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣]. فهنا لم يقل: لم يُطعم المسكين، قال: لا يحض ولا يحث الناس علىٰ طعام المسكين، هذا ذم، فالمجتمع الجيد يطعم المسكين ويحث ويتلمس ويبحث ويجتهد أفراده حتىٰ لا يبقىٰ فقير، ولا يبقىٰ جائع.

وانظر إلىٰ مجتمع النبي ﷺ فقد كان مثالًا لهذا المعنىٰ، فأهل الصفة في المدينة كانوا فقراء، وهم أضياف الإسلام كما وصفهم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هاجروا في سبيل الله، ولا يملكون شيئًا لا مالًا ولا دارًا، وعددهم يبلغ العشرات، وإنما يبيتون في المسجد، وقد تحدث عنهم أبو هريرة رضي الله عنه فقال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلىٰ أهل ولا مال، ولا علىٰ أحد، إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها(١).

ثم إنَّ الحافظ ابن حجر تتبع طرق الحديث وشواهده، فقال: وقد وقع في حديث طلحة بن عمرو عند أحمد وابن حبان والحاكم: «كان الرجل إذا قدم علىٰ النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة»، وفي مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط عند ابن سعد: «كان أهل الصفة ناسًا فقراء، لا منازل

---

(١) أخرجه البخاري ح٦٤٥٢.

لهم، فكانوا ينامون في المسجد لا مأوىٰ لهم غيره»، وله من طريق نعيم المجمر عن أبي هريرة: «كنت من أهل الصفة، وكنا إذا أمسينا حضرَنا رسول الله ﷺ فيأمر كلَّ رجلٍ فينصرفَ برجل أو أكثر، فيبقىٰ من بقي: عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتي النبيُ ﷺ بعشائه فنتعشىٰ معه، فإذا فرغنا قال: «ناموا في المسجد»، وتقدم في باب علامات النبوة وغيره حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: «أنَّ أصحاب الصفة كانوا ناسًا فقراء، وأنَّ النبي ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فلْيذهب بثالث» الحديث، ولأبي نعيم في الحلية من مرسل محمد بن سيرين: «كان رسول الله ﷺ إذا صلىٰ قسم ناسًا من أصحاب الصفة بين ناس من أصحابه؛ فيذهب الرجل بالرجل، والرجل بالرجلين، حتىٰ ذكر عشرة» الحديث، وله من حديث معاوية بن الحكم: «بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الصفة؛ فجعل يوجه الرجل مع الرجل من الأنصار، والرجلين والثلاثة، حتىٰ بقيت في أربعة ورسول الله ﷺ خامسنا، فقال: «انطلقوا بنا». فقال: «يا عائشة عشِّينا» الحديث[(١)].

فلا يوجد ضياع في مجتمع المدينة النبوية، وغير وارد في أدبياته أنْ يبيت فقراؤه وهم جوعىٰ، لأنه مجتمع معتنٍ بالحاجات الاجتماعية، معتنٍ بأفراده، فهو مجتمع متماسك قوي. ولذلك فإنَّ فروض الكفايات منهجية اجتماعية علمية، وليست مسألةً علمية فحسب.

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٨٦.

بل إنَّ النبي ﷺ أول مقْدَمه إلىٰ المدينة، وفي أول خطاب وجهه إلىٰ الناس، إلىٰ المجتمع الجديد قال: «اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام، تدخلوا الجنة بسلام»[1]، فلاحظ إفشاء السلام، وإطعام الطعام... هذه قضايا اجتماعية، والعناية بها مطلب.

هذا ما يتعلق بالاكتفاء المالي والغذائي، ومثله ما يتعلق بالتربية الأخلاقية ومكافحة الشرور من الأخلاق الرديئة والأفكار الهدامة ونحو ذلك، لذلك يجب الاعتناء بالتعليم، والتعليم الديني تحديدًا وعلىٰ وجه أخص، وتجب توعية الناس وتربيتهم علىٰ الدين ومعرفة الحلال والحرام، وحراسة أخلاقهم ومحاربة الرذيلة والفواحش وأسبابها، ويجب تتبُّعها واستقصاؤها، كالمسائل المثارة اليوم: الشذوذ - عافاكم الله - وغيرها من مسائل الفواحش، فإنَّ تقصيها ومحاربتها والرد علىٰ شبهاتها وأفكارها، والرفع بشأنها للمسؤولين ونحو ذلك، هذا كله من فروض الكفايات، ومما تنمو به المجتمعات، وكذلك مسائل مثل القضاء علىٰ الفساد والظلم والبغي والغش والتزوير والرشوة، أو التخفيف منها، هذه من فروض الكفايات، وهي في الوقت نفسه تنمي المجتمع وتطوره وتُنهضه، وقد قص الله تعالىٰ علينا في كتابه قصة يوسف عليه السلام وهو يقود النماء الاجتماعي في مصر بشقيه التربوي والاقتصادي. ومن ثَمَّ ينبغي أنْ تشيد الأمة المؤسسات

(١) أخرجه الترمذي ح١٨٥٥.

القيمية، فهي تقوم بجزء من فروض الكفايات؛ وذلك لأنها في مصلحة الأمة: في تنمية أخلاقها، وفي تنشئة الأجيال علىٰ القيم والأخلاق والمروءات، وعلىٰ ما يُحبه الله سبحانه وتعالىٰ، هذه المؤسسات تقوم بفروض الكفايات، والعاملون فيها ينبغي أنْ يستشعروا دورهم في هذا الأمر، كونهم يقومون بواجبات مهمة، وفيها مصلحةٌ للأمة.

والمربون الذين يقومون علىٰ المحاضن التربوية، هم في ثغر ينفع الأمة ويصدُّ عنها عاديات الأفكار، وغوازي المذاهب الهدّامة والأفكار المضللة، وهم يقومون بواجب كبير من فروض الكفايات، ويسدون ثغرًا عظيمًا.

وهكذا هي فروض الكفاية من إطعام الفقراء وكسوتهم وسد حاجاتهم، ومعالجة المرضىٰ وعيادتهم وإكرام الموتىٰ من غسل وصلاة ودفن، وإصلاح البيوت وتزويج الأيامىٰ وتيسير زواجهم وإعانتهم علىٰ إعالة بيوتهم، وتفقد أحوال الشباب وتحصينهم من الأفكار المنحرفة وتربيتهم علىٰ الدين والمروءات والأخلاق الكريمة ومعالجة انحرافاتهم، وإقامة الحدود والأخذ علىٰ يد الظلمة ونصرة الضعفاء وأخذ الحق لهم، كلها واجبات اجتماعية يؤجر الناس عليها، ويأثمون إذا تركوها جميعًا، وهي - كما ترىٰ - تحسِّن الحالة الاجتماعية وترتقي بالبيوت والعشائر والأسر، وتسمو بأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية.

ولأنها بهذا القدر فهي تحتاج إلىٰ إدارة، وتحتاج إلىٰ تتبع الحاجات، والتخطيط لسد الاحتياجات.

■ سادسًا: فروض الكفاية حراسة للشريعة علمًا وتطبيقًا

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

حراسة محكمات الدين وثوابته وأصوله، مثل أركان الإسلام وأركان الإيمان، ومسائل الفطرة مثل الزواج وتنميته وإصلاحه وتحسينه... هذا كله من حراسة الدين ومحكماته؛ فالقائمون علىٰ أعمال من هذا القبيل يسدون ثغرًا مهمًّا في الأمة، والأمة تحتاج لمن يحرس تلك المحكمات، وهم الدعاة إلىٰ الخير والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهم الصفوة من خير أمةٍ أخرجت للناس.

ولذلك يجب علىٰ الأمة - خاصة العلماء وطلاب العلم - التيقظ لكل ما يمس العقيدة الإسلامية وأركان الإيمان، والرد علىٰ ما يثار للتشويش عليها، فضلًا عن تعليم أركان الدين ونشرها بين الناس.

ويجب تعليم الناس أركان الإسلام وأطر الناس علىٰ الالتزام بها وإقامتها علىٰ الوجه المراد، وإزالة المظاهر التي تعوق ظهور شعائر الإسلام. وقل مثل ذلك في مسائل الفطرة.

وحراسة الشريعة تكون بأمور، من أهمها نشر العلم الشرعي بين عامة الناس وخاصتهم، والرد علىٰ الشبهات المثارة والأغلاط العلمية، والاحتساب العلمي علىٰ السلوكيات الاجتماعية المخالفة للشريعة الإسلامية. والعمل علىٰ حراسة الدين فرض كفاية، وواجب علىٰ مجموع الأمة، وقد يتعين علىٰ القادرين والمختصين ومن هم أهل لذلك. وبهذا فإنَّ الأمة بحاجة إلىٰ فروض الكفايات؛ إذ تمثل حراسةُ الدين إحدىٰ جوانبها.

■ سابعًا: فروض الكفاية تعدُّ مدخلًا مهمًا في السياسة الشرعية

حينما تُدرس السياسة الشرعية، وفق المفهوم الصحيح؛ فإنَّ فروض الكفايات مدخل كبير في إتقانها؛ فمثلًا: تخطيط التعليم، والاحتياجات المالية، والمسار الاقتصادي، والجهاد ومراتبه التي ذكرها أهل العلم، وإدارة الصناعات، هذه كلها داخلة في السياسة الشرعية، والعمل فيها - كما تبين لنا - من فروض الكفايات، ففقهها

من هذا المنظور يجعلنا قادرين علىٰ فقه السياسة الشرعية المناسبة، من خلال الإدارة الجيدة وترتيب الأولويات ومستوىٰ المطلوب ووقته.

وتزداد أهمية هذا الفقه في حال الأزمات والكوارث التي تحل بالمجتمعات، وفي حال الفوضىٰ واضطراب الأمن؛ فإنَّ باب فروض الكفايات قادر علىٰ تخطي هذه الأزمات والاضطرابات، والنجاح في جعلها مفتاحًا للنهوض والارتقاء والاستقواء، وكثيرًا ما كانت الأزمات في الأمة بداية النهوض، وذلك حينما فقه أسلافنا واجبهم تجاهها.

وكذلك فإنَّ دراسة مفهوم فروض الكفايات مدخل مهم لدراسة كتب السياسة الشرعية؛ التي دوَّنها أهل العلم البارعين، ككتاب غياث الأمم لأبي المعالي الجويني وككتاب السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

■ ثامنًا: فروض الكفاية تصنع الإيجابية في نفوس المسلمين

تحويل المسلم من إنسان سلبي ضعيف متشائم إلىٰ إنسان قوي فاعل متفائل، إلىٰ إنسان متحرك منتج منجز مهمة عظيمة، وهي مهمة

ينتجها الفقه والفهم وعمل القلب. فالذي يدفعه هو استشعاره بأنَّ ما يقوم به هو فرض كفاية وواجب، وأنه عبادة يؤجر عليها، وأنه يرتقي بنفسه وبأمته بهذا الواجب، وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]. يقول مجاهد: نفَّاعًا للناس. وقال سفيان: معلِّمًا للخير. وقال مقاتل: معلِّمًا مؤدِّبًا في الخير[١].

ينتقل المسلم - وفق مفهوم فروض الكفاية - من التفكير في إسقاط الواجب عنه، إلىٰ التفكير في كيفية سد احتياجات الأمة، وكيف يكون مباركًا نافعًا، ولَبِنة صالحة في المجتمع، وصاحب رسالة، ويبدأ هذا المسلم يفكر في صناعة مشاريعه التي يخدم الأمة والدين والمجتمع من خلالها ودينه ومجتمعه، بل يتحول إلىٰ عنصر إنقاذ في المجتمع وقت الأزمات والاضطرابات، وهلم جرًّا من المعاني البطولية التي يصنعها هذا المفهوم في نفوس المسلمين.

ما الذي حرك حبيب النجار الأنطاكي من أقصىٰ المدينة داعيًا قومه إلىٰ الإيمان بالله ورسله إلا أنَّ الإيمان أشعل في قلبه جذوة الحركة

(١) انظر موسوعة التفسير المأثور ١٤/ ١٠٠.

والإيجابية وحب الخير للغير والنصح للناس. قال تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٧]. قالوا: وكان رجلًا سقيمًا قد أسرع فيه الجذام(١)، ومع ذلك فلم يسوِّغ لنفسه أنْ يكون قاعدًا سلبيًّا لا ينتفع به، بل قدم ما يمكنه فعله تجاه قومه وتجاه دينه وتجاه رسل الله.

حتىٰ ذلك الرجل من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه لم يجد لنفسه عذرًا في ترك العمل ودعوة الناس، فبذل ما يستطيع فعله في بيئة ناصبت الرسل العداء، وحاول إقناع قومه بالحوار العقلي لكف قومه عن الطغيان. قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٧٠.

ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[غافر:٢٨-٢٩].

لقد تسربت السلبية إلىٰ العديد من أفراد الأمة المليارية، وجعلت من الإنسان كائنًا قاعدًا، لا تعدو مهمته أنْ يكون متفرجًا، حتىٰ صار عبئًا علىٰ المجتمع ونُخَبِه، وصار جزءًا من المشكلة، بدلًا عن أنْ يكون منتجًا ومنجزًا، وإذا تكاثر السلبيون في المجتمع كوَّنوا منه مجتمعًا ضعيفًا مشلولًا، فتضاعفت - علىٰ إثر ذلك - احتياجات هذا المجتمع، وبمعنىٰ آخر: أنت إما أنْ تسدَّ الاحتياجات أو تطلب الاحتياجات، والإنسان في مجتمع كهذا مهدور الكرامة مسلوب الإرادة، هو ردُّ فعل لا فعل، لا يشعر بالواجب ولا يتقدم إلىٰ الأمام.

والذي يصنع قيمة الإنسان - بعد إيمانه وتوحيده - ليس المال ولا النسب ولا العرق، وإنما يصنع قيمته اهتمامه ودأبه وعمله وإرادته، ويترجم ذلك الدورُ الذي يقدمه، فذلك ما يصنع من الإنسان ذا قيمة، وبهذه الإيجابية يمكن أنْ يكون الفرد مؤثرًا في معادلة قوة الأمة وصحتها، ولو لم يكن مشهورًا معروفًا.

والنبي ﷺ نهىٰ عن احتقار أي معروف تبذله للأمة، فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أنْ تعطي صلة الحبل، ولو أنْ تعطي شسع النعل، ولو أنْ تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أنْ

تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أنْ تلقىٰ أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أنْ تلقىٰ أخاك فتسلم عليه، ولو أنْ تؤنس الوحشان في الأرض، وإنْ سبَّك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أنْ تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أنْ تسمعه فاجتنبه»(١).

■ تاسعًا: فروض الكفاية طوق نجاة في الأزمات والكوارث

الأزمات والكوارث تسبب اضطرابات كثيرة في المجتمعات، وسواء كانت أسبابها الحروب والاقتتال والانقلابات أم الجوائح التي يرسلها الله كالزلازل والفيضانات والأوبئة. وفي هذه الأحوال - علىٰ اختلافها - فإنَّ العمل بمفهوم فروض الكفايات يعد طوق نجاة ينقذ المجتمعات من الانزلاق في الخسائر البشرية والمادية، ويخفف من أضرارها ونتائجها.

ولهذا لما غزا المغول بلاد الشام انتدب شيخ الإسلام ابن تيمية نفسه لتثبيت الناس وحثهم علىٰ التوبة والاجتهاد والجهاد والاجتماع والتكافل والتعلم وحراسة البلدات والحصون، وضمن ذلك قال: «واعلموا - أصلحكم الله - أنَّ من أعظم النعم علىٰ من أراد الله به

---

(١) أخرجه أحمد ح١٥٩٥٥.

خيرًا أنْ أحياه إلىٰ هذا الوقت الذي يجدد الله فيه الدين ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتىٰ يكون شبيهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ذلك الفوز العظيم. فينبغي للمؤمنين أنْ يشكروا الله تعالىٰ علىٰ هذه المحنة التي حقيقتها منحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتىٰ - والله - لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم حاضرين في هذا الزمان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين. ولا يفوت مثل هذه الغزاة إلا من خسرت تجارته وسفه نفسه وحرم حظًا عظيمًا من الدنيا والآخرة؛ إلا أنْ يكون ممن عذر الله تعالىٰ كالمريض والفقير والأعمىٰ وغيرهم؛ وإلا فمن كان له مال وهو عاجز ببدنه فليغز بماله...»[1].

ينبغي أنْ ينظر إلىٰ الأزمات والأحوال الطارئة بمفهوم فروض الكفايات وسد الاحتياجات. وعلىٰ سبيل المثال، فإننا اليوم أمام أعداد كبيرة من اللاجئين والمشردين والمهجرين، وهؤلاء غالبًا لا ينعمون بالمستوىٰ الجيد من الأمن والاكتفاء الغذائي والدوائي والتعليم. وعلىٰ المسلمين تقع مسؤولية ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٤٢٠.

إنَّ اضطلاع شريحة من الأفراد ومن مراكز العمل الخيري بمسؤوليتهم تجاه هؤلاء يدخل في باب فروض الكفايات، لا سيما إذا علمنا أن معظمهم من أبناء المسلمين. وحيث تنتج الحروب والكوارث كثيراً من المآسي علىٰ الصعيد النفسي والتربوي فإن من المجالات المهمة التي يُقترح علىٰ هذه المراكز العمل عليها: البناء النفسي المشتمل علىٰ سواء الشخصية والأمان والإيجابية وتلبية الحاجات، وتوفير التعليم الأساسي المشتمل علىٰ القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين ومبادئ الأخلاق، وتوفير الخدمات الصحية ومعالم الفطرة الجسدية المتعلقة بالنظافة وسنن الفطرة والزينة ونحوها. ويمكن تطوير العمل في هذه المجالات لتتحول - علىٰ سبيل المثال - إلىٰ: إنشاء مدارس خيرية قادرة علىٰ الوفاء بمتطلبات الدراسة من حيث التجهيزات والمقررات التعليمية والكفاءات العاملة. ويمكن أنْ تعمل هذه المدارس بنظام (التعليم عن بعد). وهو ما تتجه إليه كثير من مؤسسات التعليم الكبرىٰ في العالم، وهو أقل كلفة وأقدر انتشارًا. وإنشاء عيادات صحية متنقلة، تقوم بدورَي التطبيب والتثقيف الصحي، بطريقة ميسرة وإبداعية. وعمل تطبيقات إلكترونية تساعد الآباء والأمهات في تربية أولادهم وتنشئتهم علىٰ القيم والفضائل، تأخذ بعين الاعتبار طبيعة الشريحة المستهدفة وظروفها الخاصة.

وهذه مقترحات وأمثلة، والمأمول أن تُعقد ورش العمل وحلقات النقاش للنظر في حال ٣٧ مليون طفل مهجَّر في العالم بحسب اليونيسيف، وعدِّهم فرصة عمل داخلة في فروض الكفايات الواجبة علىٰ مجموع الأمة، والتي سنرىٰ انعكاسها علىٰ المستقبل إنْ شاء الله.

■ عاشرًا: فروض الكفاية منهج للحياة الاجتماعية

الذي يسير في حياته وفق مفهوم فروض الكفايات يظفر بكنز عظيم؛ لا يظفر به غيره إلا القليل، وهذا الكنز هو الأجر المستمر من الله تعالىٰ علىٰ كثير من شؤون الحياة. كيف ذلك؟

إذا احتسب الإنسان الأجر في عمله أو مهنته أو وظيفته التي يقضي فيها أهم أوقات يومه؛ لأنَّ فيها تعليمًا لدين الله ونشره بين الناس، أو لأنَّ فيها تربية للأجيال الناشئة، أو لأنها مما تتقوىٰ به الأمة، أو لأنَّ فيها خدمة مهمة للمسلمين، أو لأنها تعدُّ من أسباب الاكتفاء الذاتي، أو لأنَّ فيها إحقاقًا للحقوق وإبطالًا للفساد والحرام والاحتيال... إلىٰ غير ذلك من المقاصد المطلوبة في مجتمع المسلمين؛ إذا احتسب الإنسان أجره في ذلك ونظر إليها باعتبارها داخلة في أبواب الكفاية، ولم يخالف بها سنة النبي ﷺ ومنهجه؛ كانت له عبادة منذ أنْ يبدأ العمل فيها حتىٰ ينتهي.

ثم هو إذا تلمَّس حاجات الناس، وعاد مريضهم، وتبع جنائزهم، ونصر ضعيفهم، وأصلح ذات بينهم، وسعىٰ في تزويج الأيامي منهم، وقرَّب ولم يفرِّق، وأطعم ولم يبخل محتسبًا ذلك في القيام بفرض الكفاية عليه؛ كان له أجره العظيم عند الله، قال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

وبذلك تكون حركته لله، ويكون قد اهتدىٰ إلىٰ حقيقة الدين، ويدخل في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣]. وقد عرَّف أبو العباس ابن تيمية العبادة بأنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[١]. ثم قال: فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة. أ.هـ.

---

(١) العبودية ص٤٤.

فكما أنَّ فروض الكفايات جزء من العبادات، فهي أيضًا جزء من أعمال المسلم اليومية؛ لو أنه يحتسب أجرها عند الله. وليست العبادة مقتصرة علىٰ الذكر والقراءة والصلاة والصيام كما يفهم بعض الناس؛ فتجده عازفًا عن الاعتناء بباب فروض الكفايات المشتمل علىٰ مصالح المسلمين ظنًّا منه أنها ثانوية، أو أنه لا ينبغي شغل الأوقات بها، أو أنه ينبغي قصر الاعتناء علىٰ فروض العين ومستحبات العين.

لقد عوَّدنا الوحي أنْ يقرن بين العبادات اللازمة وبين العبادات المتعدية النافعة للناس، وأحيانًا يقرن بينها وبين العقيدة وأعمال القلوب، فانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٣-٥]. وأطلق الإنفاق في الآية ليشمل الزكاة والصدقات والنفقات المختلفة، قال قتادة: ينفقون في سبيل الله وطاعته[1]. ومثله كثير في القرآن والسنة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٧-٢٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

(١) معالم التنزيل ١/ ٦٣.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٤].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. أوضح بيان لشمولية الإسلام لهذه المعاني؛ فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «يعني الصلاة، يقول: ليس البر أنْ تصلوا ولا تعملوا غير ذلك»(١).

ومن السنة قول النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة فأعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(٢).

وللأسف فإنَّ أذرعة العلمانية في مجتمعات المسلمين تدفع نحو الفهم الخاطئ للعبادة... الفهم الذي يعزل الإسلام عن الحياة،

---

(١) جامع البيان ٣/ ٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ح٩ ومسلم ح٥٨.

ويقصر العبادة علىٰ إقامة الشعائر والتزود بالنوافل العينية غير المتعدية، كالصلاة والصيام والعمرة وذكر الله، وذلك - أي قَصْر العبادة علىٰ ذلك - خطأ علمي وفكري مرفوض. الحياة - ليلها ونهارها - كلها لله، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، وذلك لا يكون إلا وفق المفهوم الصحيح للعبادة، الذي يعدُّ مفهوم فروض الكفايات بابًا من أبوابه المهمة.

وبالمفهوم القاصر والخاطئ؛ فإنَّ الإنسان لكي يكون عابدًا فإنه مضطرٌ إلىٰ أنْ ينسلخ من شؤون الدنيا، ومن مصالح الأمة، ومن الدعوة إلىٰ الله، ومن نشر العلم، ومن خدمة المجتمع، ومن السعي وراء المحتاجين... لماذا؟ لكي يتفرغ للتعبد! للإكثار من الصلاة، وذكر الله سبحانه وتعالىٰ، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك. والله سبحانه لا يريد هذا، والصحابة الكرام رضي الله عنهم لم يكونوا علىٰ هذا الشأن، كانوا يتنقلون من واجب إلىٰ واجب، من عبادة إلىٰ عبادة، كما سبق ذكره.

والحق أنَّ الخطأ في مفهوم العبادة ليس حادثًا في حقبة ما بعد الاستعمار وتغول العلمانية، فإنَّ أهل العلم دأبوا علىٰ إصلاحه وبيان الصواب فيه من قبل. فهذا ابن القيم رحمه الله يعالج هذه المسألة فيقول: «ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها

وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف».

ثم قال بعد أنْ استعرض الأصناف الثلاثة الأولىٰ:

«الصنف الرابع قالوا: إنَّ أفضل العبادة العمل علىٰ مرضاة الرب تعالىٰ في كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإنْ آل إلىٰ ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل. والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل: الإقبال علىٰ تعليمه والاشتغال به. والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة، والقرآن، والدعاء والذكر. والأفضل في وقت الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن. والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلىٰ الجامع؛ وإنْ بعد كان أفضل. والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلىٰ المساعدة بالجاه أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك علىٰ أورادك وخلوتك. والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة علىٰ تدبره وتفهمه، حتىٰ كأن الله تعالىٰ يخاطبك به، فتجمع قلبك علىٰ فهمه وتدبره والعزم علىٰ تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب

من السلطان علىٰ ذلك. والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك. والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين. والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتىٰ إنه أفضل من الإقبال علىٰ تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء. والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك علىٰ خلوتك وجمعيتك. والأفضل في وقت نزول النوازل وأذىٰ الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم، دون الهرب منهم، فإنَّ المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه. والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من عزلتهم فيه. وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه. فإنْ علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فهي خير من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله تعالىٰ في ذلك الوقت والحال، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتىٰ خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرىٰ نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله علىٰ وجه واحد.

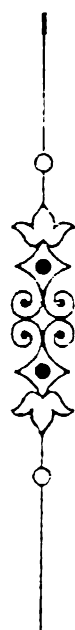
وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال منتقلًا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره»[1].

إذن؛ لا بد من نوافل صلاتك وأورادك اليومية، ولا بد من أعمالك الأخرى، تعلُّمك وتعليمك، إغاثتك ونجدتك، جوارك وقرابتك.. كلها عبادةٌ وبذل، دافعها التقرب إلى الله تعالى.

وكذلك طريقة تفكيرك في الحياة، وبوصلة قراراتك، وكيف تقرر أمرًا مستقبليًّا، فإنَّ باب فروض الكفايات يؤثر عليه، ويدفع إلى أمام عينيك السؤال الآتي: كيف ينفعني هذا القرار عند الله؟ وكيف أقدم من خلاله للأمة؟ وهذا السؤال الذي يتوارد إلى ذهنك دائمًا، وفي كل تفكيرك، وفي كل قرار تتخذه؛ دليلٌ على وجود محبة الله ودينه في القلب، ووجود شعور المسؤولية عند هذا المسلم، وبهذا تصبح حياتك عبادة، وبهذا أصبح لديك منهجية علمية لحياتك الاجتماعية.

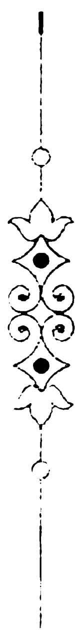
---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٣٢-١٣٨.



المبحث الرابع

مجالات فروض الكفايات اليوم



مجالات فروض الكفايات كثيرة ومتنوعة، وتستوعب طاقات الناس وإمكاناتهم وقدراتهم، وتشتمل علىٰ حاجات الناس والأمة والمجتمعات، ولذلك جاء التعبير عنها في كتاب الله بألفاظ عامة وأوصاف مطلقة؛ كالإحسان وفعل الخير والدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وفي هذا المبحث سأعرض أمثلة - مجرد أمثلة لا للحصر - للمجالات التي تدخل في باب فروض الكفايات في هذا الزمن، وسواء كانت واجبة أو مستحبة، لأنَّ المقصد هو الفكرة والمفهوم. وسأسرد الأمثلة - إنْ شاء الله - دون تفاصيل، مع التذكير بأن في ما مضىٰ من الكتاب الكثير من الأمثلة المنثورة، فمن هذه المجالات ما يلي:

■ مجال العلم الشرعي:

١. إنشاء مدارس ذات مقررات دينية.

٢. إعداد مقررات تعليم دينية.

٣. بناء مناهج تعليمية.

٤. إنتاج أفلام توثيقية.

٥. إنتاج وسائط تعليمية.

٦. إعداد برامج للمعلمين.

٧. تأسيس مشاريع لتقريب العلم.

٨. إصلاح التعليم في مختلف بلاد العالم الإسلامي.

٩. إصلاح الانحرافات العلمية.

١٠. بحث المسائل العلمية المعاصرة.

١١. الاعتناء بالفتوىٰ.

■ **مجال التأثير التربوي:**

١. بناء مناهج تربوية.

٢. الوعظ والإرشاد.

٣. الدعوة إلىٰ الله.

٤. تأليف الكتب المفيدة.

٥. إنتاج وسائط إعلامية تربوية.

٦. إعداد وتنفيذ برامج للوالدين والمربين.

٧. إعداد وتنفيذ برامج للأولاد (ذكورًا وإناثًا).

٨. كتابة أطروحات تربوية معاصرة.

٩. تأسيس وتشغيل جمعيات ومراكز متخصصة.

١٠. إصلاح الانحرافات الفكرية والسلوكية في المجتمع.

١١. نشر الوعي بمخططات الأعداء.

١٢. إعداد الدراسات والأبحاث التربوية.

■ **مجال الأخلاق الكريمة والفاضلة:**

١. التصدي للغزو الأخلاقي.

٢. إعداد وتنفيذ البرامج التربوية الأخلاقية.

٣. إعداد البرامج والمشاريع لتربية المروءات.

٤. إعداد البرامج والمشاريع لتنمية الفطرة.

٥. إنتاج الوسائط الإعلامية.

٦. إعداد مشاريع قوانين عامة لحفظ الأخلاق.

٧. الاحتساب علىٰ نشر الرذيلة.

٨. إعداد الدراسات والأبحاث الأخلاقية.

- **مجال تنمية الزواج:**

١. توعية الناس بمفاهيم الزواج وواجبات الزوجية.

٢. إعداد المشاريع لتأهيل المتزوجين.

٣. تسهيل شؤون الزواج.

٤. إصلاح مشكلات وأخطاء الزواج.

٥. تحرير مسألة حقوق المرأة.

٦. التصدي للفكر النسوي والشذوذ.

٧. إعداد الدراسات والأبحاث الزواجية.

- **مجال التكافل والمواساة:**

١. تفقد الشرائح القاصرة: (أرامل، أيتام، مطلقات، عاجزين، وافدين).

٢. السعي للكفاية الغذائية.

٣. بث الوعي بمفاهيم التكافل والمواساة.

٤. إنشاء جمعيات ومراكز مواساة متخصصة.

٥. صناعة الطب الخيري.

٦. تيسير الدخول إلىٰ سوق العمل.

٧. إعداد الدراسات والأبحاث.

٨. إبداع الأفكار الاجتماعية لتعزيز التكافل والمواساة.

- **مجال المساجد:**

١. بناء المساجد.

٢. صيانة المساجد.

٣. تطهير المساجد من المخالفات الشرعية.

٤. تفعيل الدور الاجتماعي للمسجد.

٥. تفعيل الدور العلمي للمسجد.

٦. إعداد الأئمة والخطباء (دورات، كتب، وسائط).

٧. حل مشكلات المساجد.

- **مجال الأعمال والوظائف والمهن الضرورية:**

١. التعليم.

٢. الطب.

٣. الأمن.

٤. القضاء.

٥. الإفتاء.

٦. الإصلاح.

٧. هندسة المدن.

٨. الخياطة.

٩. البناء.

- **مجال الصناعات الضرورية:**

١. إنشاء الطرقات.

٢. صناعة الدواء.

٣. صناعة الغذاء.

٤. الفلاحة.

٥. الصناعات البحرية.

٦. الصناعات النفطية.

٧. صناعة السلاح.

٨. صناعة مكونات البناء.

٩. التعدين.

■ مجال صناعة الإعلام:

١. إنشاء القنوات الفضائية.

٢. المشاركة في التواصل الاجتماعي بأهداف صحيحة.

٣. إنتاج البرامج التوثيقية.

٤. إعداد دراسات الاحتياجات الإعلامية.

٥. بث الوعي المطلوب من خلال الإعلام.

٦. إنتاج برامج الأطفال النافعة.

٧. إعداد برامج المرأة النافعة.

٨. تعلُّم أعمال الإخراج والمنتجة والتصوير.

٩. نقد الفن والسينما، ودراسة مخاطرها.

١٠. تعليم الناس طريقة التعامل مع وسائل الإعلام والاتصال.

- **مجال التقنية:**

١. تصنيع التقنية، برمجة وأدوات.

٢. إنشاء التطبيقات النافعة.

٣. الاكتفاء التقني عن الغرب.

٤. بث الوعي الأمني ضد مخاطر التقنية المختلفة.

٥. تطويع التقنية في خدمة الإسلام والمسلمين.

٦. صناعة التحصين التقني (حجب، إتلاف، انتقاء).

٧. إعداد الدراسات والأبحاث التقنية النافعة.

- **مجال التجارة:**

١. تأسيس متاجر ومؤسسات ملتزمة بالشريعة.

٢. توفير البضائع الحلال.

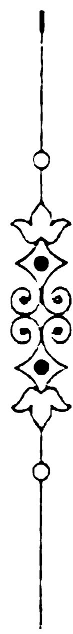
٣. تعليم فقه التجارة.

٤. الاحتساب علىٰ المخالفات الشرعية في التجارة.

٥. إعداد مشاريع لمساندة صغار المستثمرين والمبتدئين.

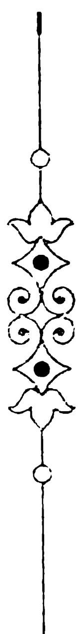
٦. حراسة السوق من التغول الرأسمالي.

ولا أستطيع حصر المجالات، ولا مفرداتها، ولكن أردت التنبه إلىٰ أهمية النظر في المجالات ومفرداتها، وإثارة الفكر حولها. والله الموفق.



المبحث الخامس

اعتبارات مهمة في فروض الكفاية



يتطلب الاعتناء بمفهوم فروض الكفايات بعض النقاط المهمة، لكي يكون في الاتجاه الصحيح، ويساعدنا علىٰ العمل بالطريقة الصحيحة. فمنها ما يلي:

■ عمل القلب وحضور الإخلاص لله:

مما هو متقرر أنَّ الإخلاص لله في العمل الصالح شرط لقبوله عند الله تعالىٰ، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:٥]. وفي حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ»[(١)].

وكون أبواب فروض الكفاية متعلقة بمصالح الآخرين، ولها علاقة بالناس والمال، فربما يصيب العامل منها ثناء أو مصلحة دنيوية ما أو ترقية ما أو مكانة اجتماعية أو منصبًا ما، وهذا أمر طبيعي جدًا. فربما سمع العاملون في هذه الأبواب ثناء الناس عليهم، وربما رأوا تقديرهم أو تبجيلهم لهم أو الاحتفاء بهم، ونحو ذلك من السلوكيات

---

(١) أخرجه البخاري ح١.

المعتادة، فضلًا عن العطايا المالية والجوائز والهدايا؛ مما قد يؤثر في نية العامل. وهنا يتوجب على العامل أنْ يلتفت إلى قلبه وأنْ يعالج نيته وأنْ يجتهد في إخلاص العمل لله تعالى، وأنْ يتعلم النية. قال سبحانه في وصف الأبرار الذين يدخلون الجنة: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨-٩].

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠] يقول السعدي: «ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحثُ عنها ومعرفةُ معاصي القلب والبدن والعلمُ بذلك واجبًا متعيِّنًا على المكلف. وكثير من الناس تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصًا معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة»(١).

وعلى العامل أنْ يتذكر ما في الآخرة من ثواب، وما لهذه الأعمال من فضل، وما يلزم لذلك من إحسان العمل وإتقانه وتجويده والمثابرة فيه، وأنْ يذكر نعمة الله عليه أنْ وفقه لهذه الفضائل ويسَّر له أسبابها؛

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٥٠٤.

وهذا هو عمل القلب في فروض الكفايات. وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وغيره ممن هو علىٰ طريقته - في عدم تطلبه للمردود المادي والفائدة الدنيوية وقصد غير الله تعالىٰ، فقال عز وجل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١].

وقد يخطئ بعض العاملين في تقدير الأمر؛ فيتوقف عن العمل خشية الوقوع في الرياء والسمعة وطلب الدنيا، والصحيح أنه لا يقف عن العمل حتىٰ مع وجود المردود الدنيوي لأنه في كثير من الأحيان لا بد منه؛ وإنما يعالج النية ويتعلمها ويجاهد نفسه عليها، فيضيف إلىٰ عمله في أبواب فروض الكفايات عملَ القلب، ويتعبد لله بعمل القلب كما يتعبد لله بعمل الجوارح، ويجاهد نفسه مدىٰ الحياة، ولو كان التوقف عن العمل صحيحًا لكانت «الغنائم» سببًا في ترك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للجهاد في سبيل الله، ولكان «العطاء المالي» سببًا في ترك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ للتفرغ للتعليم والإمارة والقضاء. والمؤمن يجاهد نفسه، ويقاوم الشهوة الخفية ولا يستسلم، ويفعل كما كان سلفنا الصالح يفعلون.

أما التماهي مع ما تسببه الأعمال من ثناء ومال وجاه وغير ذلك مما يشوش علىٰ النية، والارتياح لذلك أو الفرح به

أو السعي إليه أو الانسياق وراءه... فربما أوقع في المحذور، وقد قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأنْ يقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورَجل تعلَّم العلم، وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم، وعلَّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أنْ ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه، ثم ألقي في النار»[1].

وهذا الحديث ذكر أوصافًا لا أشخاصًا بأعيانهم، وهي أوصاف لمن يعمل في المصالح متعدية النفع، كان هدفهم من الدخول فيها ما ينالهم من ثناء وجاه، فاستحقوا العقوبة المخزية، عافانا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم.

---

(١) أخرجه مسلم ح١٩٠٥.

والمقصود أنَّ عمل القلب والإخلاص لله من العبادات التي ينبغي ملازمتها لفروض الكفايات، وهذا يضيف إلىٰ الداعين إلىٰ الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عبئًا جديدًا، وهو أنْ يكون لهم اعتناء بالقلب وصحته.

أمر آخر في عمل القلب: الحب!

الحب هو مما يدفع المسلم إلىٰ الاجتهاد وبذل المستطاع في أبواب فروض الكفايات. حب الله سبحانه وتعالىٰ، وحب خدمة هذا الدين، وحب صلاح الأمة، وحب الخير للناس، وتأمل الدعاء الوارد عن نبينا ﷺ: «اللهم إني أسألك فِعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين»[1]؛ لتعلم أنَّ «الحب» ذو شأن للذين يقومون بفروض الكفايات ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلىٰ الخير.

الحب علامة فارقة بين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، والذين أخلدوا إلىٰ الأرض واطمأنوا إلىٰ الدنيا. قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤]. لذلك ينبغي الاعتناء بأعمال القلوب في أبواب فروض الكفايات.

---

(١) أخرجه أحمد ح١٦٦٢١، والترمذي ح٣٢٣٣.

- **التوازن والاعتدال في سد الحاجات:**

مجالات فروض الكفاية متنوعة، والمطلوب سد الحاجات إلىٰ حد الكفاية، فيجدر بالعاملين في هذا الباب والمخططين له ومن يديرون أعماله أنْ يكونوا حاسبين للمقادير قدر الإمكان وحسب ما يغلب علىٰ الظن، فلا يفرِّطون في ثغر ولا يغلون في آخر، ولا ينغمسون في عمل فينسون الآخر.

ومما يعين علىٰ التوازن والاعتدال: الرؤية الصحيحة لواقع الأمور، واستشراف مستقبلها، والنظر في حاجات المجتمع نظرًا صحيحًا سالمًا من المشوشات، وإدارة الأعمال علىٰ وجهها الصحيح.

الجهل والبعد عن الدين والفقر والمرض والضعف والضياع مولدة للحاجات، وسد هذه الحاجات والقيام بالفرض الواجب فيها يتطلب تخطيطًا وإدارة.

ما مجالات فروض الكفاية في الحي الفلاني، أو البلدة الفلانية؟

ما مجالات فروض الكفاية في المؤسسة الفلانية؟

ما قدراتنا لسد حاجات الحي أو المؤسسة أو البلدة؟

كم واحد نحتاجه للقيام بهذا الواجب؟

كم التكلفة المالية لسد هذا الاحتياج؟

من يشاركنا في ذلك؟

كيف نستفيد من الموارد العامة المتاحة؟

ما الأهداف المرحلية المناسبة لسد هذا الاحتياج؟

أسئلة الإدارة والتخطيط تجعلنا متزنين معتدلين في تناولنا لحاجات الأمة وقضاياها، فلا نقع في التفريط ولا في الإفراط، ووجود النقاش في الكم والكيف يؤدي إلىٰ التوازن والاعتدال، وهذا يتطلب منا النظر في حاجات مجتمعنا، وفي قدراتنا وإمكاناتنا.

ومما يلاحظ إقبال فئام من الناس علىٰ أنواع محددة من أبواب فروض الكفايات؛ كان السبب في إقبالهم عليها التأثير الإعلامي؛ أي أنَّ العاطفة المستثارة هي التي حددت مسارات العطاء والبذل والعمل، وأنَّ سد الحاجات لم يتم بطريقة معتدلة وعقلانية. لذلك وجب التنبيه إلىٰ أهمية النظر فيما نفعل وأين نسير، وتقييم ذلك، وفقهه، وعدم الانسياق خلف أي دعوة دون تمحيص ونظر.

■ العمل الجماعي:

قد يتطلب القيام بفرض الكفاية إلىٰ العمل الجماعي، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾. لم يقل: ليفعل منكم كل واحد. والأمة: الجماعة والعصبة.

وقد قال تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]، قال البغوي: النجوىٰ هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوىٰ ما ينفرد بتدبيره قومٌ، سرًّا كان أو جهرًا، فمعنىٰ الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم(١). فانظر إلىٰ هذه الآية العظيمة، التي يذم الله تعالىٰ فيها النجوىٰ من أصلها، وقد ذمها في مواضع أخرىٰ، إلا أنه استثنىٰ من هذا الذم من يجتمعون لثلاثة مقاصد شريفة: الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس. قال السعدي: «إلا من أمر بصدقة» من مال أو علم أو أي نفع كان. «أو معروف» وهو الإحسان والطاعة وكل ما عُرف في الشرع والعقل حُسنه. «أو إصلاح بين الناس» والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع علىٰ الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض. فهذه الأشياء حيثما فُعلت فهي خير، كما دلَّ علىٰ ذلك الاستثناء(٢).

وكونها جماعة فإنه يلزم وجود قيادة، ووجود الجماعة والقيادة يتطلب أدبيات معيَّنة كالشورىٰ والالتزام والجدية والمسؤولية، ومختلف العمليات الإدارية كالتخطيط والتنظيم والتوجيه والتقويم،

---

(١) معالم التنزيل ٢/ ٢٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٥٥ مختصرًا.

ويكون اجتماعهم علىٰ فرض من فروض الكفاية، يتشاورون فيه: كيف يُقدم بالطريقة الأفضل، وبالطريقة التي تُرضي الله سبحانه وتعالىٰ، وبالطريقة التي تسد حاجة المجتمع؛ هذا مما استحسنه القرآن، وندب إليه.

من المفيد اجتماع الإثنين والثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك لعقد المشاريع والمبادرات المتضمنة للدعوة والتعليم والخير والبر والصلة والإصلاح وحماية الأخلاق والأعراض، بل إنَّ الذين يجتمعون لهذه المقاصد الجليلة يؤتيهم الله الأجر العظيم إذا أخلصوا عملهم لله وابتغوا به الدار الآخرة، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

ونعم المجالس تلك التي تنعقد لمناقشة فرض من فروض الكفاية، فيخرج القوم من المجلس وقد ائتمروا بينهم بمعروف، وقد رسموا أهدافًا وصنعوا خطة وتحملوا مسؤولية ذلك. فنعم المجالس تلك.

ومع ذلك؛ فإنَّ تعذُّرَ العمل الجماعي لا يعفي المسلم من القيام بواجبه، لأنَّ المسؤولية فردية، وتلك وسائل لا مقاصد.

والإسلام يمنح الفرد قوةً تجعله قادرًا علىٰ الأفعال الكبار التي لا يستطيعها الفئام من ضعاف النفوس ومن خائري الهمم. قوة الفرد

في الإسلام معروفة مؤيدة. ومبدؤها الشعور بالاستعلاء الإيماني، والشعور بالمسؤولية، والشعور بالقدرة علىٰ الفعل.

وتأمل جيدًا فِعل نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة الخندق حين أسلم، إذ قام بقلبه شعور الواجب، فقام بدورٍ يعدُّ من أهم الأدوار في الخندق.

■ الإنسان قبل المادة:

في بناء الأمة وتقويتها وتحسين مستوىٰ المجتمع؛ يحسن التنبيه إلىٰ التصور الصحيح في معادلة الإنسان والمادة، حيث يطلب الاعتناء بكليهما، ولكن لا تقدَّم المادة علىٰ الإنسان: روحه وشخصيته وعقيدته وعقله. ولـمَّا فتح أصحاب النبي ﷺ البلدان، لم يعتنوا بتشييد المباني كما اعتنت بها - من قبل - الفرس والروم، لكنهم اعتنوا بالإنسان؛ بما يصحح عقيدته، وبما يعلمه القرآن والشريعة، وبما يهذب أخلاقه، وبما يخدم شؤون حياته، وبما ييسر معاملاته. وهذا لا يلغي الاعتناء بالمادة، فإنها كما قال أهل العلم: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، فنحن بحاجة إلىٰ التشييد، وإلىٰ البناء وإلىٰ الأسواق... لكن ليس ذلك هو الأصل، ولا تقاس نهضة الأمم بما تشيده ولا بالجمادات ولا بالشعارات؛ وإنما تقاس بالإنسان:

بأخلاقه وبعلمه وبفكره ومثابرته وقوَّته وتمكينه، وبتوجهه إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ واتباع رسوله.

والتذكير بهذا مهم في زمن الاستعلاء الرأسمالي، الذي يعنىٰ بالاستهلاك، ويبني المصالح علىٰ «البزنس»، ولا يؤمن إلا بالمحسوسات: المواد والصور، ولقد سبب ثراءً فاحشًا لدىٰ أقوام وفقرًا مدقعًا لدىٰ آخرين.

في ظل الاستعلاء الرأسمالي؛ ماذا جنىٰ الإنسان من الهيئات والمؤسسات الأممية والعالمية؟ هيئة الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي، واليونيسيف، والأونوروا... ماذا قدمت للإنسان؟ وأين ذهبت مئات المليارات من الدولارات التي تنفقها الدول المشاركة في كلٍّ منها؟

وأمثلة البؤس الذي صنعه الاستعلاء الرأسمالي كثيرة، كأعداد القتلىٰ في الحروب العبثية، ومنها ما نشرته منظمة اليونيسيف، التابعة لهيئة الأمم المتحدة، في أحد تقاريرها بأنه يوجد اليوم ٣٧ مليون طفل مهجَّر في العالم. وهذا التقرير بمثابة اعتراف ببؤس الرأسمالية التي تعنىٰ بالمادة قبل الإنسان، وعلىٰ حساب الإنسان.

٣٧ مليون طفل تتناوب علىٰ نهش طفولتهم ثلاثية الفقر والجهل والجريمة، فأين الدعم الدولي الكبير لهؤلاء؟ وأين التنظيمات

والروابط والمؤسسات؟ في سبات وغفلة طالما أن هذه الملايين ليست ميدانًا للاستهلاك.

لقد سيطرت الرأسمالية على مفاصل الحياة، حتى بلغت سطوتها إلى العمل الخيري، والتعليم، وراحة الناس، ورفاهيتهم، وحياتهم الاجتماعية. فلتُحتلَّ بلدانٌ لأجل زراعة المخدرات والتكسب من تجارته! ولتخرج المرأة ليزداد الدخل! ولأجل الصناعات النووية فلا بأس بتعريض الناس للأمراض المزمنة والخلل الجيني! ولتحقيق أرباح خيالية من الصناعات الدوائية فلا بأس بنشر الأمراض! ولكي تنجح المنصة الإعلامية فنحن مضطرون إلى إفساد عقائد الناس وأخلاقهم وفطرهم!.. وهكذا يعمل العقل الرأسمالي.

ومن ثَمَّ فقد أنتجت الرأسمالية -وفق مفهوم المادة قبل الإنسان- الحروب والصراعات والمخترعات المدمرة للأرض وللناس ولقيمهم.

■ اختيار الثغر المناسب

من الاعتبارات المهمة: اختيار الثغر المناسب، الذي يترتب عليه أن تدير وقتك وحياتك بنجاح. ينبغي أنْ تبحث عما هو مناسب لك،

وما الشيء الذي يمكن أنْ تقدمه لدينك ولأمتك ولمجتمعك؟ ومن ينجح في ذلك ينجح نجاحًا كبيرًا.

واختيار الثغر المناسب لا ينبع من مزاج متقلب، وإنما هو نتيجة تفكير منطقي يراعي حاجات الأمة، ورحلة استكشاف للنفس تتلمس فيها قدراتك وما وهبك الله، فكلٌ ميسَّر لما خلق له، ويُسبق باستقصاء وقراءات، ولا يستغني المسلم عن مشورة ناصح صادق قد عركته قضايا أمته، ورفع راية الدعوة إلىٰ الخير. وقبل ذلك وأثناءه وبعده سؤال الله التوفيق، والهداية والتسديد؛ فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قل اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدىٰ هدايتك الطريق، والسداد سداد السهم»[(١)].

وفي هذا السياق ينقل أبو حفص البزار طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية في اختياره للثغر العلمي المناسب، فيقول: ولقد أكثر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التصنيف في الأصول، فضلًا عن غيره من بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته، ليكون عمدة في الإفتاء، فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، فإذا قلَّد المسلم فيها أحد العلماء المقلَّدين جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقن خطأه. وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء،

---

(١) أخرجه مسلم ح٢٧٢٥.

كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكلابية، والسالمية، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أنَّ كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، الظاهرة علىٰ كل دين، العلية، وأنَّ جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أنْ سمعت أو رأيت مُعرضًا عن الكتاب والسنة، مقبلًا علىٰ مقولاتهم، إلا وقد تزندق أو صار علىٰ غير يقين في دينه أو اعتقاده.

فلما رأيت الأمر علىٰ ذلك، بان لي أنه يجب علىٰ كل من يقدر علىٰ دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم، أنْ يبذل جهده ليكشف رذائلهم، وزيف دلائلهم، ذبًّا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية. ولا والله ما رأيت فيهم أحدًا ممن صنف في هذا الشأن، وادعىٰ علوَّ المقام، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام... فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلىٰ الأصول، وألزمني أنْ أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالىٰ به من الأجوبة العقلية والنقلية[1].

لاحظ قوله: «الفروع أمرها قريب». فقد يُفهم من هذا انتشار التصنيف في الفروع، وقد ينساق الناس لما هو شائع ومنتشر لغلبته،

---

(١) الأعلام العلية ص٧٥٤ مختصرًا.

وقد يأخذ شكل الموضة العلمية، حيث كانت سوق المذاهب والأصحاب والفروع رائجة في المجتمعات العلمية آنذاك، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، وهو الاحتياجات العلمية: ما الذي تحتاجه الأمة؟ ما الذي يحتاجه المجتمع؟

ولاحظ قوله: «وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء، قد تجاذبوا فيها بأزمَّة الضلال، وبان لي أنَّ كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية، وأنَّ جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم». تجد هنا تقييمًا للواقع واستقصاء حقيقيًّا، وتحليلًا منطقيًّا. واتضح من ذلك وجود حاجة فكرية في الأمة.

ولاحظ قوله: «بان لي أنه يجب علىٰ كل من يقدر علىٰ دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم، أنْ يبذل جهده ليكشف رذائلهم، وزيف دلائلهم، ذبًّا عن الملة الحنيفية، والسنة الصحيحة الجلية». فالمسألة أصبحت واجبًا كفائيًّا؛ يقوم به كل قادر علىٰ بيان الحق وكشف الشبهات والدفاع عن السنة الصحيحة، ويرىٰ أنه قد يتعيَّن عليه لقدرته علىٰ ذلك وحاجة الناس إليه.

ولاحظ قوله: « فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلىٰ الأصول، وألزمني أنْ أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما

أنعم الله تعالىٰ به من الأجوبة العقلية والنقلية». فتجد هنا تحديد البوصلة، وما يسمىٰ اليوم «التركيز»، ثمة بوصلة موجودة، توجه الإنسان في مشاريعه، ومن كان لديه بوصلة فلديه اتجاه واضح، ورسخ في هذا الاتجاه.

ومسألة الثغر المناسب تتلوها إدارة الوقت، وإدارة الحياة، وإدارة العمر.

ويكون الإنسان مباركًا حين يوجه طاقاته في احتياجات الأمة المتنوعة، سواء عن طريق الوجوب أو عن طريق الاستحباب، فحينئذٍ يكون مباركًا، ويكون الله سبحانه وتعالىٰ نفع به، وليست العبرة في أن يكون مشهورًا، أو حامل لقب، فليس هذا هو المقصد وإنْ حصل. المقصد أنْ يسد الإنسان شيئًا في دين الله سبحانه وتعالىٰ، وأنْ يقدم لأمته ما ينفعها.

■ الحاجة المالية لفروض الكفايات:

فروض الكفايات - لكونها تتعلق بمصالح الأمة المتنوعة - تتطلب بذلًا، ومن أهم ما يبذل في سبيلها: المال، لذلك جاء الوحي بالحث علىٰ الإنفاق فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]. كل ما من شأنه أنْ يكون في سبيل الله،

وكل ما من شأنه أنْ يُعلي راية الدين، وكل ما من شأنه أنْ يرفع مستوىٰ الأمة، وكل ما من شأنه أنْ يخدم الإسلام فهو في سبيل الله، كما مرَّ من قبل.

وإذا لم تكن الناس باذلة سخية في الدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمفهوم الواسع الذي قررناه سابقًا، إذا لم يكونوا كذلك زادت الحاجات في الأمة، وضعفت المجتمعات. وإذا لم يكونوا كذلك فمن يغذي المشاريع والمبادرات النافعة بالمال؟

ولذلك برز عندنا في حضارتنا الإسلامية الوقف باعتباره من أفضل طرائق الاستدامة المالية، وصار سمة عامة للأمة، وإلىٰ عهد قريب جدًّا كان كثير من الناس يوقفون ما يتيسر لهم وقفه، حتىٰ وصل وقفهم إلىٰ الأثاث والمواعين، فضلًا عن العقار والمزارع والمتاجر.

واعتنىٰ أصحاب النبي ﷺ بالوقف؛ فعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، قال أبو طلحة: أرىٰ ربنا يسألنا من أموالنا، فأُشهدك يا رسول الله أني قد جعلت أرضي بريحا لله. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اجعلها في قرابتك». قال: فجعلها في حسان بن ثابت وأبي بن كعب[١].

---

(١) أخرجه البخاري ح٢٧٧٢ ومسلم ح٩٩٨.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أصاب عمر أرضًا بخيبر، فأتىٰ النبي ﷺ يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضًا بخيبر، لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: «إنْ شئت حبست أصلها، وتصدقت بها». فتصدق بها عمر: أنه لا يباع أصلها، ولا يبتاع، ولا يورث، ولا يوهب. قال: فتصدق عمر في الفقراء، وفي القربىٰ، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف[١]. وقد أوقف بنو النجار من الأنصار أرضًا للمسجد النبوي[٢].

وقد بوب البخاري: باب وقف الدواب والكراع والعروض والصامت. وذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ عمرَ حمل علىٰ فرس له في سبيل الله، أعطاها رسول الله ﷺ ليحمل عليها رجلًا، فأخبر عمر أنه قد وقفها يبيعها، فسأل رسول الله ﷺ أنْ يبتاعها فقال: لا تبتعها ولا ترجعن في صدقتك»[٣].

قال الرافعي: وحمَل العلماء «الصدقة الجارية» علىٰ الوقف، واشتُهر اتفاق الصحابة علىٰ الوقف قولًا وفعلًا. ويجوز وقف العقار والمنقول: كالعبيد والثياب والدواب والسلاح والمصاحف والكتب، ودليله ما روي أنه ﷺ قال: «أما خالد، فقد حبس أدرعه واعتده في

---

(١) أخرجه البخاري ح٢٧٥٢ ومسلم ح١٦٣٢.
(٢) أخرجه البخاري ح٢٧٧١.
(٣) أخرجه البخاري ح٢٧٧٥.

سبيل الله»[1]. وأيضًا فالمسلمون متفقون علىٰ وقف الحُصر والقناديل والدلالي، في جميع الأعصار. ويجوز وقف ما يُطلب لعينٍ تُستفاد منه؛ كالأشجار للثمار، والحيوانات للأصواف والأوبار والألبان، والبيض، وما يُطلب لمنفعةٍ يُستوفىٰ منه؛ كالدور والأراضي. ويجوز الوقف علىٰ أكفان الموتىٰ، ومؤنة الغسالين والحفارين؛ وإنْ كان ذلك من فروض الكفايات، وعلىٰ شراء الأواني والظروف لمن تكسرت عليه، وعلىٰ المتفقهة، وهم المشتغلون بتحصيل الفقه؛ مبتديهم ومنتهيهم، وعلىٰ الفقهاء، ويدخل فيه من حصل منه شيئًا، وإنْ قل[2].

فكان الوقف ثقافة يتداولها الناس عبر الأجيال، والعصور والقرون، والدول والممالك، والناس لا يزالون يوقفون، ولقد عُثر علىٰ أوقاف غريبة وعجيبة لا يُلتفت إليها، وهذا إلىٰ عهد قريب. واستفاد من هذه الأوقاف العلماء وطلبة العلم والفقراء والمساكين والمجاهدون والدعاة والأطباء والفلاحون، والأصحاء والمرضىٰ، والكبار والصغار. حتىٰ الحيوانات والبهائم والخيول والقطط والكلاب... إلخ. وأُمة الإسلام أمةٌ منفقة علىٰ نفسها، مالها يخرج منها ويعود إليها، تبذل المال فيرجع للأمة. فالاستدامة المالية مطلب له اعتباره في مفهوم فروض الكفايات.

---

(١) أخرجه البخاري ح١٤٦٨.

(٢) انظر: الشرح الكبير ٦/ ٢٥٠ وما بعدها.

■ تعلم المهارات لإتقان الأعمال:

بما أنه يتوجب على كل مسلم أنْ يكون له إسهامٌ ما في باب فروض الكفايات، فإنه ينبغي أنْ يتعلم أصول عمله وأحكامه، وأنْ يُتقن مهارات هذا العمل؛ لأنه أصبح عبادة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والله يحب المحسنين، والمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، قال السعدي: وخير أجير استؤجر من جمعهما، أي القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملًا بإجارة أو غيرها، فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما فإنَّ العمل يتم ويكمل(١). وفي تفسير قتادة: القوي في الصنعة(٢). يعني: يُنجز بشكل جيد، وما يُسمى اليوم الكفاءة والفاعلية والجودة هو من ذلك، فتعلُّم المهارات العملية الجيدة بغرض الإجادة والإتقان مطلب له اعتباره.

---

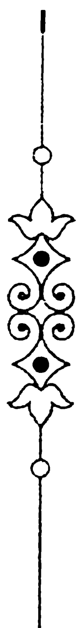
(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦١٤.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٢٢٧.

■ التكامل لا التنافس:

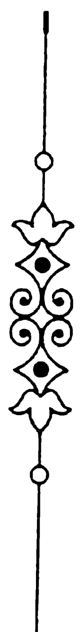
حينما نخوض غمار فروض الكفايات، التي فيها دعوةٌ إلىٰ الخير، وتنميةٌ للبر والإصلاح، فنحن نكمِّل بعضنا، ولسنا نتنافس، فلا يحسد بعضنا بعضًا، ولا يحقد بعضنا علىٰ بعض، ولا يحقر بعضنا بعضًا، ولا نفضل بعضنا علىٰ بعض، فإنَّ كل هذه الأبواب فيها الخير.

وتفاضل الأعمال لا يكون بالتقييم النابع عن مزاج أو ضعف في المعطيات، ولا يكون ببيئة العمل أو نوع العمل، وإنما يكون بما يحدث في القلب من إخلاص ورغبة في الثواب وصدق في العمل ونصح للمسلمين، وبما يتعدىٰ نفعه في الأمة، ونحو ذلك.

إذن؛ فالمفضلات قد تكون من خارج هذا العمل، ولذلك نحن نتكامل جميعنا، وكلٌ ميسر لما خُلِق له، وبهذا تصبح الأمة خير أمة أخرجت للناس، وإذا نجحت الأمة في هذا فإنها لا تختلف ولا تتفرق، ولا تتنافس، وإنما تتكامل، لذلك جاء السياق القرآني ناهيًا عن التفرق والاختلاف: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥].



خاتمة



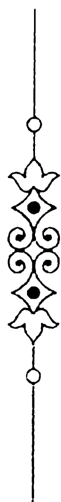
كل النتائج التي توصلتَ إليها خلال قراءتك لهذا البحث مهمة، وأهمها فهم ما يجب عليك تجاه أمتك ومجتمعك ودينك، والعمل في ضوء مفهوم فروض الكفايات، وانتشال واقعنا والصعود به إلىٰ حال أمثل؛ يرضي الله تعالىٰ، ونكون به قد نصرْنا الله تعالىٰ.

وهذه بعض المباحث التي أحببت أنْ أعرض من خلالها مفهوم فرض الكفاية في الإسلام، باعتباره مبدأً شرعيًّا عامًّا وفكرًا ينبغي ترجمته إلىٰ سلوك وواقع، فمن هذه النافذة عرضتها، ولا أدعي الاستقصاء فيها ولا الترتيب الأفضل، وحبذا لو أضفتَ إليها أو استدركتَ عليها أو ناقشتَ أفكارها أو راجعتَها... كل ذلك مستحسن.

وأختم بأهمية تربية الناس ودعوتهم إلىٰ هذا المفهوم، وحبذا أنْ تقوم كل مؤسسة مجتمعية بدورها في نماء مفهوم فروض الكفايات، حتىٰ البيت ينبغي أنْ يربي أولاده علىٰ البذل والعطاء وحب الخير للآخرين والرحمة بالمساكين والإحسان إلىٰ الجار وإلىٰ ذي القربىٰ والفداء من أجل الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.



المراجع



١. الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، أبو حفص عمر بن علي البزار، ت: علي العمران، دار عطاءات العلم، ط٣، ١٤٤٠هـ.

٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة.

٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط١٤١٨،١هـ.

٤. البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، دار الكتبي، ط١، ١٤١٤هـ.

٥. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٦. تفسير التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م.

٧. تفسير سورة آل عمران، ابن عثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٣٥هـ.

٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت: أبو إسحاق الحويني وأ.د.حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٤٠هـ.

٩. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٠. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن الواحدي، ت: الشيخ عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

١١. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمعه: مجد الدين أبـو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية.

١٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتناء: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٣٥هـ.

١٣. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر ابن عبد البر القرطبي، ت: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٤هـ.

١٤. جامع البيان عن تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ.

١٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي.

١٦. رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة، عبد الرحمن السعدي، اعتنىٰ بها: أبو الحارث نادر بن سعيد آل مبارك التعمري، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ.

١٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨. سنن الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ.

١٩. سنن أبي داود، ت: عصام موسىٰ هادي، دار الصديق للنشر، ط٢، ١٤٤٢هـ.

٢٠. سنن ابن ماجه، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ.

٢١. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: علي العمران، دار عطاءات العلم، ط٤، ١٤٤٠هـ.

٢٢. شرح سنن أبي داود، شهاب الدين ابن رسلان المقدسي، ت: عدد من الباحثين بإشراف خالد الرباط، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، ط١، ١٤٣٧ هـ.

٢٣. الشرح الكبير (فتح العزيز بشرح الوجيز)، عبد الكريم بن محمد الرافعي، دار الفكر.

٢٤. شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي، ت: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤١٨هـ.

٢٥. شرح مختصر الروضة، نجم الدين الطوفي، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٧هـ.

٢٦. شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، ت: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٧. صحيح البخاري، دار التأصيل، ط٣، ١٤٣٨هـ.

٢٨. صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٩. صحيح مسلم، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٣٠. العبودية، شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٧، ١٤٢٦هـ.

٣١. غياث الأمم في التياث الظُلَم، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، ت: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط٢، ١٤٠١هـ.

٣٢. الفتاوىٰ الكبرىٰ، شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ.

٣٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر، ت: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٣٤. الفروق، شهاب الدين القرافي، عالم الكتب.

٣٥. الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٦. مجموع الفتاوىٰ، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعها: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ.

٣٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ت: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، ط١، ١٤٣٦هـ.

٣٨. مدارج السالكين في منازل السائرين، ابن قيم الجوزية، ت: نبيل نصار السندي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٤١هـ.

٣٩. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن علي الملا القاري، دار الفكر، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٠. المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمعه: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط١، ١٤١٨هـ.

٤١. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٤٢. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٣. معالم التنزيل، البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، ١٤٣١هـ.

٤٤. معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، ١٤٠٨.

٤٥. موسوعة التفسير المأثور، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، الطبعة الثانية١٤٤٠هـ

٤٦. الهداية إلىٰ بلوغ النهاية، أبو محمد مكي بن أبي طالب، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩.